

مكتشفوا العالم الجديد

تأليف
هنري ليف برجر

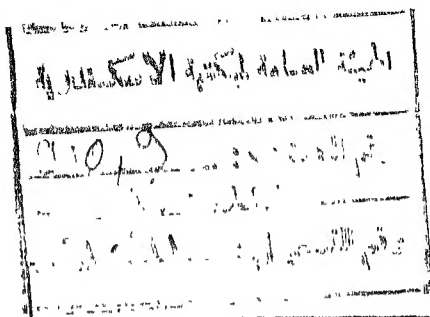


ترجمة ورفقة
دكتور

السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالثانك
جامعة الإسكندرية - مصر
كلية العلوم العربية والإسلامية

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤١٣٩٤٧٢ - الإسكندرية



مكتشفو العالم الجديد

تأليف / جوزيف برجر

ترجمة وتقديم

الدكتور / السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والاجتماعية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٣ - ألكندرية

ترجمة كتاب

DISCOVERERS OF THE NEW
WORLD

By

Josef Berger
New York, 1972

تقديم المترجم

يعالج هذا الكتاب موضوعا تاريخيا على جانب من الأهمية، فلقد كان العالم حتى نهاية القرن الخامس عشر على غير علم بما يعرف فى أيامنا هذه بالأمريكتين. وفى هذا الوقت كان يطلق على المحيط الأطلسى "بحر الظلمات" ومن المحتمل أن يرجع ذلك الى التأخر العلمى، من حيث رسم الخرائط، ومن حيث ايجاد الوسيلة التى تزيل هذا الغموض، أو الظلام، الذى خيم على هذه المنطقة من العالم، والتى أصبحت تضم بين جنباتها فى تاريخنا المعاصر أقوى وأعظم دولة على الأرض، ألا وهى الولايات المتحدة الأمريكية.

ويرجع هذا الغموض أيضا الى تأخير الصناعة وبخاصة السفن العملاقة أو السفن القوية القادرة على عبور هذا المحيط (الأطلسى). فضلا عن تأخر علم الخرائط والملاحة والفلك، علاوة على عدم رغبة بعض الأشخاص فى حب المغامرة، وفوق كل ذلك، فإن مشاكل العالم الاقتصادية فى هذه الفترة كانت محدودة، لهذا كانت تطلعات العالم فى ذلك الوقت قاصرة على المناطق المعروفة آنذاك.

ولكن بعد ظهور القوميات فى أوروبا، التى تعتبر نتيجة من نتائج عصر النهضة، وبعد ازدياد التقدم العلمى، والمعرفة، وبعد التقدم فى مجال الصناعة، أدى كل ذلك بالناس الى حب المغامرة، إما من أجل التوسع، فيما وراء البحار، وإما من أجل معرفة الأماكن المجهولة فى العالم.

وكان من دوافع حب المغامرة هذه الحصول على توابل الشرق بون وسيط، وفى نهاية القرن الحادى عشر وما بعده، كانت أوروبا تحصل على سلعها التجارية الآسيوية من أسواق الشام ومصر وآسيا الصغرى. وكانت هذه التجارة فى أيدي التجار المسلمين. وكان من المستحيل على تجار أوروبا المسيحيين القيام بطريقة مباشرة بالاستيلاء على هذه التجارة، والسبب فى ذلك راجع الى ان المسلمين كانوا هم المسيطرون الى حد ما على الطرق التجارية فى المحيط الهندى وفى الأقطار المجاورة له.

ورغم ذلك فقد قبل الغرب الأوربي هذا الوضع فترة طويلة من الزمن، لأنه كان فى حاجة ماسة الى تلك التوابل التى لاتزرع فى بلاده، والتى لايمكنه الاستغناء عنها، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى لم يكن قد اكتشف فيه بعد وسائل التبريد الحديثة.

ومن المعروف أن تجارة التوابل كانت تشكل حلقة الاتصال بين الشرق والغرب عبر العصور، وقد أوجدت هذه التجارة الطرق البحرية والبرية على حد سواء. وكان المماليك فى مصر والشام يتحكمون فى هذه التجارة، فعندما تصل السلع التجارية من الهند توضع فى مستودعاتهم الموجودة شرق البحر المتوسط وبعد ذلك يأتى التاجر الايطالى لشرائها وبيعها الى الأوربيين بسعر غالى. واهتم بهذه التجارة ولعدة قرون طبقات غنية من أوربا الغربية، فكانوا يحصلون على كل مايلزمهم من توابل وحرير وأحجار كريمة وعاج، بالإضافة الى السلع التجارية النادرة التى تنتجها أوربا.

وزادت أهمية هذه السلع التجارية بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، لأن العثمانيين بعد أن هيمنوا على هذه المدينة عرقلوا التجارة وأغلقوا طرقها البرية التى تمر من وسط آسيا الى أوربا. لهذا فكر الأوربيون، وبجدية فى ايجاد طريق بديل للوصول الى مصادر تجارة الهند، دون الحاجة الى وسيط.

وقد تبنت هذه الفكرة دولتان أوروبيتان هما دولة البرتغال ودولة أسبانيا، وفى هذه الفترة كان يوجد طريقان بحريان فقط يوصلان الى جزر الهند الشرقية أحدهما يمر جنوبا مع ساحل افريقيا، فرأس الرجاء الصالح ثم يصل فى النهاية الى الهند، ويمر ثانيهما عبر المحيط الأطلسى فى اتجاه الغرب الى الهند أيضا. وقد ساعد الدولتان على قيامهما بهذه المهمة أنهما كانتا فى منأى عن الحروب الأوروبية التى استمرت فترة طويلة من الزمن، ولكن هاتين الدولتين اتجهتا وجهة أخرى نحو هذا العمل الكشفى العظيم، واستعانت فى ذلك بالبحارة الإيطاليين لما لهم من خبرة كبيرة فى هذا المضمار، فكما نعلم فإن ظروف إيطاليا تختلف عن ظروف أية دولة أخرى، من حيث موقعها الجغرافى، ونظامها السياسى، وعلاقاتها بالدولة العربية الاسلامية.

ومن المعروف أن إيطاليا هذه قد قامت بمحاولة كشفية عام ١٢٧٠م، كان قد قام بها بحارة من جنوه، فقد وصلوا بسفنهم الشراعية الى جزر الكنارى. وفى عام ١٢٩١م

خرجت بعثة كشفية جنوبية أخرى من إيطاليا وسارت مع ساحل أفريقيا الغربى وتقول المصادر التاريخية أن هذه البعثة قد دارت من حول رأس الرجاء الصالح، فوصلت الى البحر الأحمر ولكنها مع ذلك لم تعد لأسباب غير معروفة.

وفيما بعد، وعلى وجه التحديد أى فى عام ١٤١٥م، وصلت بعثة كشفية من البرتغال إلى الشمال الإفريقى واحتلت سوتا Ceute (أى سبتة) وتولى هنرى الملاح حكمها، من قبل والده. وفى عام ١٤١٨م، اكتشف البرتغاليون جزيرة الماديرا، وفى عام ١٤٣٩ اكتشفوا جزر الأزور. وفى عام ١٤٤١، طافوا حول رأس البلانكو. وفى الفترة ما بين ١٤٤٤ - ١٤٤٥، وصل دينز دياز الى مصب نهر السنغال. وفى عام ١٤٧٥، وصلت السفن البرتغالية الى جزيرة فرناندو وبو. وفى عام ١٤٨٢ تمكن المغامر البرتغالى بارثلميو دياز من كشف مصب نهر الكنفو وطاف حول رأس الرجاء الصالح. وفى عام ١٤٩٧ م قام فاسكو دى جاما على رأس بعثة كشفية برتغالية، ودار حول رأس الرجاء الصالح وواصل مسيره الى قاليقوت فى الهند عام ١٤٩٨ م. وبهذا يمكن القول بأن البرتغال قد نجحت فى الوصول الى مصادر التوابل فى جنوب شرق آسيا، وأصبحت خطراً يتهدد النفوذ العثمانى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر.

وأما أسبانيا فقد أعدت بعثة كشفية كانت تحت قيادة كرسطوفر كولبس عام ١٤٩٢، للذهاب الى الهند عن طريق الغرب، وذلك للبحث عن مزارع وخليجان وأنهار ومضايق، توصلهم الى جزر الهند الشرقية. وقد نجحت هذه البعثات الأسبانية المتتالية من كشف هذا العالم المجهول مصادفة، التى أطلق عليه اسم العالم الجديد. ويعتبر كشف هذا العالم فتحاً جديداً للإنسانية جمعاء، وتوالت بعد ذلك البعثات الكشفية الأسبانية إلى العالم الجديد، وفى عام ١٤٩٩ ذهب لويزو أوجيدا الى فنزويلا. وكان جل اهتمام الأسبان الحصول على الذهب والفضة، لأن قوة أية دولة فى هذا الوقت كانت تقاس بما تمتلكه من ذهب وفضة، وفى عام ١٥٢٢، نجح فرناندو كورتية فى الوصول إلى امبرطورية الأزتكس فى أمريكا الشمالية، وانتصر على حاكمها وسلب أموالها وقتل أبنائها، وفى عام ١٥٣١، أبحر بيزارو نحو الجنوب إلى امبرطورية الإنكا الواقعة فى بيرو وتخلص من حاكمها اتاهوليا، وضعها الى السيطرة الأسبانية.

وبعد ذلك ساهمت بريطانيا في هذا الكشف، ففي عام ١٤٩٧م، أبحر جون كابوت من ميناء بريستول، واتجه الى شمال أمريكا، كي يجد مخرجاً يوصله إلى المحيط الهادئ، وفي القرن السادس عشر قام دوكنز برحلة كشفية إلى جزر الهند الغربية، وفي نفس القرن قام من بعده دريك لنفس هذا الغرض، ولقد ساهم هذان المغامران في إزجاج النفوذ الأسباني في جزر الهند الغربية بصورة كبيرة للغاية. ولقد كان لهذين المغامرين آثار سيئة على العلاقات الأسبانية البريطانية في هذا الوقت. وكذلك ساهمت فرنسا في هذا العمل الكشفى، ففي عام ١٥٢٤، أبحر فرازانو من جزيرة غير مسكونة تقع بالقرب من جزر الماديرا وبعد ذلك، توجه إلى العالم الجديد.

وفي ٢٠ من شهر ابريل عام ١٥٣٤ أبحر جاك كارتيه Jacques Cartier إلى العالم الجديد أيضاً، وكان الهدف من هذه البعثات الكشفية المختلفة الوصول إلى الهند، ولكن بعدما تم كشف العالم الجديد تركزت كل جهود هذه البعثات حوله. ومن هنا بدأ الصراع الدولى الرهيب بين أسبانيا وبريطانيا بصفة خاصة، وبين دول أوروبا بصفة عامة، وهذا ما سنراه في كتابنا هذا.

ويعتبر هذا الكتاب بحق إضافة جديدة الى المكتبة العربية لما يحويه من معلومات على جانب كبير من الأهمية، فلم توجد هذه المعلومات في أى مصدر آخر دون مبالغة، وإن وجدت فإنها ضئيلة للغاية ولا تكاد تذكر، فتوجد على شكل شذرات لاتفى بالغرض المطلوب.

وأدعو الله أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا العمل العلمى، فعليه الاعتماد وقصد السبيل انه نعم المولى ونعم النص

المترجم

د. السيد يوسف نصر

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك

مقدمة "لورنس روث"

موضوع هذا الكتاب الذى بين أيدينا، عن الاكتشافات التى تمت عبر بحار خطيرة، وعلى طول سواحل غير محددة على خريطة، وعبر مناطق داخلية غير معروفة. وتمتد هذه الإكتشافات من أواخر القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر، أى من منتصف عصر النهضة وحتى بداية عصر الثورة الصناعية. واستغرق هذا السجل حوالى ثلاثة قرون خاصة بالرحلات الهامة وغير الهامة.

ويبدو لنا إذا نظرنا إلى الماضى أنها واحدة من أهم الفترات المثيرة، بل كانت أكثرها كشوفاً فى تاريخ العالم، وفى أثناء ذلك كانت الأفاق الطبيعية بالنسبة للرجل الأوروبى غير محدودة المعالم، ونتيجة لذلك فإن إدراكه للعالم الذى يعيش فيه كان رحباً بحيث يفوق الإدراك فى ميادين السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والمفاهيم الدينية. وقد خلفت روايات رحلات الكشف والارتداد- التى من خلالها حدث هذا التغير من عالم العصور الوسطى إلى عالم العصور الحديثة - أنواعاً من الكتابة التاريخية التى تم الحصول عليها من التقارير الشخصية المكتوبة عن المغامرات بأقلام الضباط العظام بصفة شخصية، أو بأقلام مساعديهم الموثوق بهم.

وهذه الروايات بدءاً من أول رسالة لكولبس فى عام ١٤٩٣ م، سجلت الاكتشافات بحراً وبراً، وحددت على الكرة الأرضية مواقع القارات الأمريكية التى لم تكن معروفة من قبل، كما حددت شكلها وقدرت حجمها، ووجدت العناصر المبعثرة التى اكتشفت تدريجياً عبر سنين من رحلات لم يكن بينها أى نوع من التنسيق، وتم الحصول على هذا من الروايات الشخصية للمستكشفين الأول، التى لم تكن تعدو مجرد إيضاحات عن منجزاتهم. ونتيجة لهذا فقد تبلورت فكرة المغامرة الوعرة التى شغلت أوروبا الغربية، والتى قدمت لنا كتاب جوزيف برجر الذى نتتبع من قراءته المحاولات الكشفية المتعاقبة

التي تم عرضها في سياق واحد في مجاهل أطراف الأرض التي تم ربطها معا من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب،
وقد كتب المستر برجر قصته عن الاكتشافات العظيمة والروايات والفتوحات بلغة سهلة وواضحة دون أدنى قدر من التبسيط الزائد. وهذا التناول الذي يدعو إلى الإعجاب، جعل من كتابه واحداً من الكتب التي يقبل عليها الكبار بإحساس مرهف،

الـسـفـر

كانت أمريكا في يوم من الأيام أكبر سر على الأرض، وكان العالم الجديد يمثل الحزام العظيم لقارتين إرتبطتا عبر النصف الغربى من الكرة الأرضية بحيث يعادل حجم أوروبا بأربع مرات. ولم يعرف الجغرافيون الكبار في أوروبا منذ خمسمائة عام أين يوجد العالم الجديد؟

وكانت هذه حقيقة، ساهم فيها بعض الأوربيين فيما بعد.

فمنذ عشرة قرون تقريبا، عبر بعض المغامرين من الفيكنج شمال المحيط الأطلسى من النرويج إلى آيسلندا، ثم إلى جرينلاند، ثم إلى شمال أمريكا - ومكثوا هناك سنوات قليلة. وفي بعض الأحيان كانت جماعات من الصيادين التى قدمت من أجزاء أخرى من أوروبا تسافر مسافات بعيدة، وتتجول هناك ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعات قد شاهدت الأرض (أمريكا)، ومع ذلك فلم يدرك أحد أفراد هذه الجماعات، كم تكون مساحتها؟ أو كم تكون أهميتها؟

اعتقد الجغرافيون في القرن الخامس عشر في وجود جزر متناثرة على طول المسافة الواقعة بين أسبانيا غربا، وحتى الصين شرقا، وبالطبع لم يحلموا في شيء كالمحيط الهادئ العظيم، الذى يقع في الغرب فيما وراء قارتين - وهو يزيد في الحجم مرتين عن المحيط الأطلسى.

وقد عرف هؤلاء العلماء أن الأرض لم تكن مسطحة، وأن شكلها كشكل الكرة، ولو كانوا قد رغبوا في توضيح معالم سطحها، لكانوا قد رسموا المحيط الأطلسى أكثر اتساعا مما هو عليه في الحقيقة وإنهم بذلك سيمنون قارة آسيا بالكثير من آلاف الأميال نحو الشرق، فيما وراء حدودها، كى تصل شواطئها إلى الأطلسى. واعتقد هؤلاء الرجال أيضا أنه عندما ينظرون إلى البحر بإمعان من أسبانيا، أو البرتغال، فإنهم يشاهدون على الجانب الآخر من هذا البحر كلا من كاثي Cathay، وسبانجو Spangu اللتين تقعان على الجانب الآخر من هذا البحر (المحيط الأطلسى). كما يشاهدون الجزر التى تعرف بالصين واليابان، وجزر البهار، التى تقع جميعها في

الشرق الأقصى، ولم يحاول أى شخص الإبحار نحو الغرب ليصل إلى جزر الهند. وقد تحدث البحارة عن المحيط الأطلسى بخوف، شأنهم فى ذلك شأن الرومان الذين سموه "ببحر الظلمات" ولم يعرف شخص ما، ماهى العواصف والمخلوقات التى تهددهم؟ وماهى حيات البحر الضخمة، والرعب الذى يكمن فيه. لهذا إهتم قليل من البحارة بالوقوف على الحقيقة.

وإذا رغب مسافر فى الذهاب الى جزر الهند، كان عليه أن يتجه نحو الشرق، ثم يسير برا مسافة بعيدة، كى يصل إلى فارس، وبعد ذلك يقطع آلاف الأميال عبر آسيا، ومارا فوق الجبال العالية، كما يعبر رمال الصحراء الحارقة، علاوة على ذلك فإن للصومكانوا ينتظرونه على طول الطرق الموحشة.

ولم يقم بهذه الرحلة سوى عدد قليل من المغامرين مثل ماركو بولو. وفى هذا الوقت كانت أوروبا دائمة الحديث عن جزر الهند، فقد رويت قصص مذهشة - كان الكثير منها صادقا - عن الأبهة وعن السقوف الذهبية، وعن توابل الشرق التى تزدهم بها مدنه، وعن الموانئ المزدهمة أيضا بمستودعات البضائع المكتظة بالكماليات وقد انتشر الحديث فى أوروبا عن جزر الهند، لأنها كانت تنتج كثيرا من الأشياء اللازمة للحياة، والتى يشاق إليها الأوروبيون، ومع ذلك كانوا لا يستطيعون شراؤها من أى مكان آخر.

فكان يوجد على موائد الأغنياء الفلفل، كما توجد التوابل النادرة الأخرى فى المطبخ، فضلا عن إرتدائهم للملابس الحريرية وامتلاكهم للمجوهرات، فقد امتلك البعض منهم الياقوت وعقود اللؤلؤ. وكان يتم الحصول على كل هذه الأشياء من جزر الهند، ومن الشرق الأقصى، وكانت هذه السلع تنتقل من تاجر لآخر بواسطة السفن وقوافل الإبل. كما كانت تباع وتشترى أكثر من مرة، بل كانت تنتقل ببطء من قطر لآخر، حتى تصل فى النهاية إلى أوروبا.

وبعد ذلك جات هذه الفترة - منتصف القرن الخامس عشر- التى توقف فيها الإمداد بهذه السلع، بعد أن أغلق طريق التجارة الرئيسى البرى. فقد حدث هذا بسبب الحرب التى دارت رحاها بين الأتراك من ناحية، والنصارى من ناحية أخرى. وقد

انتصر الأتراك على النصارى، وتوغلوا فى مدينتهم المسيحية "القسطنطينية" وحاصروها عام ١٤٥٣ م، ومنذ ذلك التاريخ كانت السلع التجارية تأخذ طريقها من جزر الهند إلى أوروبا عبر القسطنطينية حيث أن الأتراك كانوا قد قطعوا كل الطرق البرية. وفى نهاية الأمر لم يترك الأتراك أى شىء يمر عبر القسطنطينية.

وبدأ رجال قليلون سواء من راسمى الخرائط أو قراء الكتب أو من الفلكيين فى سؤال أنفسهم عن أفضل الطرق التى توصل إلى جزر الهند بحرا، وقد ثبت أن هذا السؤال كان بدايه لبحث انتشر وامتد إلى أماكن كثيرة بعيدة، وامتد أيضا إلى مئات السنين.

وفى الحقيقة، كان هذا البحث خاصاً بالأرض ، ففى أثناء إجرائه، حدثت تغييرات واسعة فى حياة الناس، بل فى حياة الأمم، فقد تقرر طرح أسئلة كثيرة وهامة، منها على سبيل المثال سؤال هام، مفاده إنه يتعلق بكيفية وجود أمريكا، وماهى نوعيتها التى كانت ينبغى أن تولد فيها، وهل من المحتمل أننا سنعيش فيها اليوم؟

ولم تصل الطرق التى ظهرت على خرائط رسامى القرن الخامس عشر إلى مسافات بعيدة، فبعد السير مئات قليلة من الأميال تصبح معرفة الرواد عن هذه الطرق مبهمه وغير واضحة، لهذا اعتقد هؤلاء الرسامون فى وجود طريقين بحريين من أوروبا إلى جزر الهند.

وكانت إحدى هذه الطرق المقترحة تتجه نحو الجنوب على طول ساحل افريقيا، وفى عام ١٤١٥م، قام بحارة شجعان من البرتغال برحلة كشفية، وكانوا تحت قيادة الأمير هنرى الملاح، وقد بدأوا فى التقدم شيئا فشيئا مع هذا الطريق، حتى وصلوا إلى جنوب افريقيا، وداروا من حولها. وبعد ذلك واصلوا رحلتهم عبر المحيط الهندى حتى وصلوا إلى الشرق الأقصى.

وكان فاسكو داجاما الرجل الأول الذى وصل إلى الشرق عن طريق البحر من هذا الطريق، فهو الذى أبحر من لشبونة عام ١٤٩٧م، وكان على رأس بعثة تتكون من أربع سفن دارت من حول رأس الرجاء الصالح فى جنوب افريقيا، ووصلت هذه البعثة إلى ميناء قاليقوت عام ١٤٩٨م.

واعتقد رساموا الخرائط أيضا - فى وجود طريق آخر - يمر عبر المحيط الأطلسى. فقد أبحر البرتغاليون آلاف الأميال فى المحيط الأطلسى نحو الغرب كى يكتشفوا، ويستعمروا جزر الأزورس، ولكن لم يتجاسر شخص واحد بعد ذلك على عبور "بحر الظلمات" الذى يقع نحو الغرب فيما وراء هذه الجزر.

ولم يتجاسر شخص آخر على القيام بمثل هذه الرحلة، إلا فى عام ١٤٩٢ م. وذلك عندما قام كرسطوفر كولبوس على رأس بعثة مكونة من ثلاث سفن حيث أبحر من أسبانيا حتى وصل إلى جزر الكناريا التى توقف عندها بعض الوقت، وبعد ذلك اندفع إلى الأمام فى داخل بحر مجهول وواسع.

وبعد مرور سنوات قليلة، وبعد القيام بعدد ضئيل من الرحلات جاءت أوروبا لتواجه الحقيقة التى تتمثل فى الأرض التى اكتشفها كولبوس والتى لم تكن جزر الهند "الشرقية". بدلاً من الوصول إلى جزر الهند وصل كولبوس إلى العالم الجديد- الذى وقف عائقا فى طريق تحقيق ذلك الهدف الكبير، الأوهو الوصول إلى (جزر الهند الشرقية).

وعلى سبيل المثال، فإن النمل عندما يعترض طريقه عائق ما كحائط غير متوقع فإنه على الرغم من ذلك يواصل محاولاته فى التقدم. ومن هذا المنطلق بدأ المغامرون من العالم القديم فى الانتشار على طول السواحل الشمالية والجنوبية لأمريكا فى محاولة لايجاد طريق يؤدي الى الشرق فقد بحثوا عن مخارج وخليجان ، وأنهار ، وبحثوا ايضا عن مضايق تقودهم جميعا إلى جزر الهند.

وبمرور الوقت، عرفوا كم تكون ضخامة عقبة العالم الجديد، ومع ذلك استطاع هؤلاء المغامرون التوغل آلاف الأميال فى المناطق الشمالية القاحلة، وبقدر ماتعمقوا فى التوغل فى الداخل، بقدر ماتجاسروا على الوصول إلى الجنوب، وهناك وجدوا أمامهم مانعاً صعباً لايمكن عبوره تتمثل هذا المانع فى العالم الجديد

وقد قادهم بحثهم إلى الكشف عن قارتين كبيرتين، وفى نهاية المطاف تمكنوا من كشف العالم الجديد منطقة تلو الأخرى على امتداد الساحل الأمريكى من الشمال إلى الجنوب وبعد ذلك أكملوا رسوماتهم ولكنهم - لكى يقوموا بعمل كشفى كهذا- كان

عليهم أن يعرضوا حياتهم للخطر من أجل الوصول إلى الحقيقة.
وقد استغرق ذلك منهم أكثر من ثلاثمائة عام، وكان من الصعب أن نتخيل أي
شيء أكثر إثارة من الأحداث التي وقعت بعد وصول الأوربيين إلى أمريكا، والذين ساروا
على الشاطئ، واعتقدوا أن هذه المناطق هي جزر الهند، فبدلاً من الذهاب إلى الهند
توغلوا في داخل أمريكا (اللفظ الكبير).

بحر الظلمات

لم تكن مغامرة كرسطوفر كولبس عام ١٤٩٢م، مثيرة للغاية، بسبب حدوثها، ولكن ربما لأنها لم تحدث أبداً مرة ثانية، ومع أن عوامل كثيرة قد عرقلت كشفه لأمريكا، إلا أنه قد أنجز غالبيتها.

فكان كولبس قد قرأ تقريراً ممتعا عن جزر الهند في كتاب بولو الإيطالي، الذي سافر بالطريق البرى عام ١٢٧٥م، أى منذ قرنين من الزمان الى كاثي Cathay (الصين) الواقعة في جهة الشرق، وقد قطع ماركو بولو هذه الرحلة في ثلاث سنوات، كي يصل الى هناك. وفي ذلك الوقت كان الناس قد عرفوا أن الكرة الأرضية كروية، واندھش كولبس لهذا، وتساءل بالقول: هل كان هذا الطريق أسهل وأقصر، وهل من الممكن محاولة الوصول إلى الشرق عن طريق البحر. والسير في اتجاه الغرب عبر الأطلنطي؟ وسنعرف الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراستنا لهذا الكتاب.

وكان كولبوس قد قرأ أيضا كل كتاب بل كل خريطة نتعلق بهذا الموضوع "موضوع الوصول إلى جزر الهند" كما كتب خطابا إلى شخص اشتهر في ذلك الوقت بمعرفته الغزيرة للجغرافيا، حتى أصبح على درجة كبيرة من المعرفة في مجال الجغرافيا تفوق معرفة أى شخص غيره في العالم. وقد عرف هذا الرجل الذي كتب له كولبس خطابا باسم السيد باول Master paul الطبيب أو المعروف باسم باولو توسكانيلى Paolo Toscanelli، وكان يعمل فلكيا في فلورنسا بإيطاليا، وقد كشف له كولبوس عن خطته، وسأل الدكتور توسكانيلى التفكير فيها.

وقد أجاب الدكتور توسكانيلى بقوله: إن الخطة التي وضعها كولبس ممتازة وعظيمة، وقال : إذا وصل كولبس إلى جزر الهند فإنه يكون قد قطع مسافة قدرها خمسة آلاف ميل، وبالتخمين غير الدقيق، فإن هذه المسافة تمثل المسافة بين البرتغال والصين - وبالطبع سوف يكرم كرسطوفر كولبس في كل أنحاء العالم، وبناء على ذلك أعطى الدكتور توسكانيلى إلى كولبس خريطة العالم المعروفة في ذلك الوقت.

ولم يكن تعضيد توسكانيلى يعنى تعضيد أمه، لذا كان من الواجب أن يكون لدى

كولبس سفن وبحارة. ومن أجل هذا لم يجد أمامه من يستطيع مساعدته سوى الملوك والملكات.

ومن هنا بدأت متاعبه، ففي بداية الأمر نافش خطته عام ١٤٨٤م، مع الملك جون ملك البرتغال الذي لم يهتم بهذا (المشروع) لهذا رفض كولبس الإنتظار بعد عدة شهور من مقابلته للملك جون.

وبعد ذلك حاول كولبس مع أسبانيا، فكان قد تقابل مع كل من الملك فرديناند والملكة ايزابيلا، وشرح لهما خطته، وبعد ان استمعا إليه تشاورا مع مستشاريهما، وانتظر كولبس منذ ذلك الحين ست سنوات، كى يحصل على موافقة ملكا أسبانيا، ولكن دون جدوى، ومع ذلك كرر مطلبه مرة ثانية، ولكن قوبل هذا المطلب بالرفض من جانب ملوك اسبانيا ايضا، لذا شرع كولبس فى السفر إلى فرنسا، فى محاولة لاستمالة الملك الفرنسى، وذلك للمساهمة فى هذا المشروع المتمثل فى الكشف الغربية، ولكن دون جدوى أيضا، وفى نفس الوقت، كان لويس دى سانتا نجل lewis de Santangel يمثل القوة الرسمية فى البلاط الملكى الأسبانى، وقد نصح الملكة ايزابيلا لتعيد نظرها فى الكشف الجغرافية فوافقت على خطة كولبس، وارسلت رسولا من طرفها لإحضاره، حيث كان على مسافة أربعة أميال من المدينة التى تقطن بها الملكة.

وهكذا صدر القرار فى الدقيقة الأخيرة فأنقذت المغامرة الكبرى فى اللحظة الأخيرة.

وقد صدر الأمر الملكى إلى كولبس ببدء الرحلة من مدينة بالوس Palos الصغيرة الواقعة فى الجنوب الغربى من أسبانيا، وقد نص القرار على منح كولبس مركبين شرعيين صغيرين، هما المركب نينا Nina والمركب بنتا pinta، وعلاوة على ذلك استأجر كولبس سفينة لنفسه عرفت باسم سنتا ماريا Santa Maria .

وفى ذلك الوقت ايضا ، كان على كولبس الحصول على الرجال من سكان مدينة بالوس الذين كانوا يحصلون على أرزاقهم من عملهم كبجارة، وكصيادين للسماك ولكن لم يرغب هؤلاء البحارة فى المساهمة فى أى جزء من رحلة كولبس.

لهذا تعرض المشروع للمرة الثانية للفشل، ولكن الضابط البحري مارتن الونزو بنزو Martin Alonso Pinzon كان قد خطا خطوة لإنقاذه. ومن المعروف ان هذا الضابط كان أنشط ربان سفينة فى أنحاء هذه البقعة، وقد أحب مشروع كولبس، وقال هنا توجد فرصة البحارة فى تحقيق بعض المكاسب المالية، ويرجع ذلك الى أن الملك كان قد قرر مكافأة لأول بحار يوافق على الإشتراك فى الرحلة، وتمثلت هذه المكافأة فى حصول البحارة على جزء من الفوائد المالية (التي تحققها البعثة)

ومع ذلك فقد أصر البحارة على عدم الموافقة، ولكنهم وافقوا بعد ذلك بسبب اشتراك مارتن الونزو بنزو فى هذه الرحلة ولأن كولبس كان قد اختاره ليكون ربان المركب بنتا، واصطحب الونزو معه اخواه اللذين كان لكل منهما تأثير على الآخر. وبلغ عدد البحارة الذين تطوعوا للعمل فى هذه البعثة ٩٠ بحاراً. واستغرق إعداد كولبس لسفن الأسطول الصغير لتكون مناسبة ومنظمة تنظيمياً جيداً عدة شهور، ولم يعرف أى شخص على وجه الدقة سعة سفن هذا الأسطول، ولكن بالطبع كانت أكبر سفنه هى السفينة سانتا ماريا التى بلغ طولها ١٠٠ قدم من مقدمتها وحتى مؤخرتها، فهى ليست طويلة، ومع ذلك فلا تقل حمولتها عن مائة طن. وتبلغ حمولة السفينة نينا ٥٥ طناً، وحمولة بنتا ٦٠ طناً. وإذا صنعت عشرة سفن من نوع السفينة سانتا ماريا فى صف واحد فإنها جميعا تصل فى طولها إلى أكبر سفينة من السفن عابرة المحيطات فى أيامنا هذه.

ومع ذلك فقد كان تصميم هذه السفن ممتازاً. فقد بنيت بمعرفة نوى الخبرة فى صناعة السفن التى كانت قد تقدمت على مدى عدة أجيال - فكانت هذه السفن تصلح للعلاحة، كما كانت تتميز بالسرعة.

وفى نهاية الأمر، وفى الصباح الباكر من يوم ٣ اغسطس عام ١٤٩٢ اعطى أدلانت Adelante، أو القائد كولبس الأمر إلى السفن الثلاث الصغيرة التى كانت تحمل على ظهرها ٩٤ شخصاً، إشارة الانطلاق من ميناء بالوس (فى اتجاه الغرب). وفى اليوم الثالث من الرحلة إنزلت دفة السفينة بنتا من مكانها الضيق وتحطمت، وأدى ذلك الى أن أصبح من المستحيل استخدام هذه الدفة فى توجيه

السفينة، ولكن الكابتن مارتن الونزو بنزو تمكن من ربطها بطريقة جيدة، بحيث انضمت بنتا إلى بقية السفن.

ومكث كولبس خمسة أسابيع في جزر الكنارى، كان جم عمله في أثنائها إيجاد سفينة أخرى لتحل محل السفينة بنتا، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وكل ما فعله أنه حصل على دفعة لهذه السفينة بدلا من السابقة، ويعدُّ استئناف الرحلة.

وقد خيم السكون على البحارة، عند مرور أسطولهم الصغير بجزيرة فيرو Ferro، الواقعة في أقصى الغرب من جزر الكنارى، وقام أفراد الأسطول بصلوات كثيرة، كي يصلوا إلى نهاية العالم عبر بحر الظلمات الكبير.

وعلى سطح مياه هذا المحيط الواسع، إستعان كولبس بالرياح غير المتغيرة التي تهب بصفة مستمرة من الشمال الشرقى، والتي شاهدها كولبس في الأيام الأولى من الإبحار، وبخاصة عندما بعد عن ساحل إفريقيا، وتعرف هذه الرياح اليوم بالرياح التجارية. وهى في الواقع تساعد على الإبحار الجيد. وفي خلال عشرة أيام قطع أسطول كولبس ١٢٠٠ ميل.

ولم توجد في هذه الأيام طريقة لقياس سرعة الأبحار باستثناء مراقبة المياه، وفي هذه الحالة كان يمكن تقدير سرعة السفينة، وكانت المسافات والإتجاهات من المسائل التي لايسمح كولبس لأى شخص غيره الوقوف عليها، فمن المحتمل ان تصبح هذه المعلومات عن هذا الطريق البحرى، وعن جزر الهند ذات قيمة فيما بعد.

وإلى جانب كل هذا انتاب البحارة إحساس بالرعب، وذلك لعدم ظهور جزر الهند أمامهم. وكان كولبس قد أخبرهم بأن هذه الجزر ستظهر لهم حتما، وكان يعطى الرجال كل يوم رقما أقل عن طول المسافة الفعلية التي كان يحددها بتخمينه الدقيق وكان يحتفظ لنفسه في سجل سرى بالمسافة الى كان يعتقد أنها حقيقية، وأبحر رجال الأسطول لعدة أيام واسابيع عبر السارجاسو Sargasso الذى يغطيه العشب البنى اللون، وقد جعل هذا العشب المحيط شبيه بمرج لاحود له، وكان وهج الليل الفسفرى يتألق حول السفن ويبعث على الرهبة.

وقد رأى البحارة أشياء كثيرة، اعتقدوا انها علامات اليابسة - ورأوا أيضا

تشكيلات السحب التى هى غالبا علامة الأرض.

وفى بداية شهر أكتوبر، وبعد شهر فى المحيط الشاسع كان من الواضح لجميع البحارة انهم سيقطعون اكثر من ٢٤٠٠ ميل حسب تقدير كولبس، وذلك للوصول لليابان، ولكن فى الواقع كانت المسافة بين اليابان وغرب لشبونة تبلغ ١٠٦٠٠ ميل بحرى.

ولم توجد أى صور لسفن كولبس، ولكن من المحتمل أن السفينة سانتاماريا تشبه هذه السفينة التى رسمت عام ١٤٩٣م.

والجدير بالذكر أن نسال ونقول: هل واصل هؤلاء البحارة طريقهم إلى اليابان؟ والإجابة عن ذلك هى: نعم، لأنه فى ذلك الوقت ومابعد سيطر الخوف على كولبس نفسه، وبخاصة عندما اتجه نحو الغرب، ففى تلك الأثناء كانت أسراب كبيرة من العصافير تمر من فوق السفن وهى تتجه جميعها نحو الجنوب الغربى. وعندئذ قرر كولبس أن يتبعها، وأعطى الأمر إلى ماسك الدفة كى يغير اتجاه الطريق من الغرب إلى الجنوب الغربى.

وفى العاشر من شهر أكتوبر، كانت السفن على مسافة مائتى ميل من اليابسة، فلا يزال امامهم يوم أو يزيد. وكان الرجال لا يعرفون ذلك ، فدفعهم فضولهم إلى التجمع حول كولبس وأخبروه أنه لم يعد لديهم طاقة على الاحتمال أكثر من ذلك وطلبوا العودة.

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا قال كولبس - وهو على ظهر السفينة "سانتا ماريا" فى تلك اللحظة المتوترة - وبخاصة أنه كان على وشك الإنتهاء من مهمته. وكتب كولبس فى يومياته يقول : إنه حاول أن يرفع من روح الرجال قدر استطاعته، فذكرهم بالمزايا التى سيحصلون عليها ، وأضاف قائلا : إنهم مهما يشكون من التعب فإن عليه الذهاب إلى جزر الهند، وأنه سيستمر حتى يجد ذلك الجزء من العالم، وذلك بمساعدة ربه. عندئذ تلاشى التمرد من بين جميع البحارة.

وفى تلك الأثناء، كانت السفن تتجه إلى الأمام بسهولة ويسر. وفى اليوم التالى هبت ريح شديدة، دفعت بالسفن إلى الجنوب الغربى.

وفى صباح اليوم الحادى عشر من شهر اكتوبر تأكد الرجال أن اليابسة أصبحت على مقربة، وهناك رأوا علامات طافية على سطح الماء، تمتثلت فى فروع شجيرة Shurb بأوراقه وثمار التوت، كما وجنوا لوحاً من الخشب الجاف حفرت عليه نقوش يدوية، وكان أمل كل شخص أن يكون هو الوحيد الذى يحصل على مكافأة الملكة التى تبلغ حوالى ٢٠٠ دولار، والتى تصرف كل سنه مدى الحياة، كما يصرف مبلغ آخر من الملك لكل هؤلاء الأشخاص الفقراء.

وعند غروب الشمس قام كولبس بعمل شئ غريب فأصدر فجأة أمراً بتغيير خط السير إلى جهة الغرب، فلو كان ذلك مجرد فكرة فإنه سيكون عملاً جيداً، لأنه سيضعه على الطريق المستقيم الذى يوصله إلى مكان قريب من اليابسة.

وفى تلك الأثناء، لم يرغب أى شخص فى الذهاب لينام فى تلك الليلة، بل اصطف الجميع بجوار السفينة سانتا ماريا، فى نفس الوقت الذى كانت تندفع فيه بسرعة إلى الأمام بسبب الرياح الشديدة، وكانت كل الأعين تنظر إلى الأمام من خلال الظلام، وهى فى حالة توتر، وكان الجميع يحاول أن يرى اليابسة حتى أن البعض من البحارة تسلق الصواري العالية كي يرى (الشاطئ)

وعلى مسافة قليلة للأمام استطاع بحارة السفينة سانتا ماريا أن يروا السفينة نينا مظفاة الانوار، فقد رأوها وهى تتمايل فى الظلام على المياه الهائجة، ورأى بحارة السفينة سانتا ماريا أيضا السفينة بنتا وهى تمخر عباب الماء، وهى على مسافة قليلة فى الأمام من السفينة نينا.

وفى الساعة العاشرة، كان كولبس يقف فى مؤخرة سفينته سانتا ماريا ويعلن أنه رأى شيئاً ما على بعد، وكان هذا الشئ يمثل الضوء الخافت المتقطع الذى يشبه الضوء المنبعث من الشمعة، ولكن بعد ذلك تلاشى هذا الضوء.

ومن المحتمل أن الانفجار جعل كولبس يتخيل (هذا الضوء) ومما لاشك فيه، أنه لم يكن هناك أرض عند هذا الضوء، لأن السفن لم تزل على مسافة بعيدة.

وفى الساعة الحادية عشر بزغ ضوء القمر من مؤخرة السفينة، وكان القمر فى هذه الليلة متكاملًا تقريبًا. وفى تلك الأثناء تمكن الرجال من رؤية طريق طويل إلى

الأمم، بحيث استمرت السفن الصغيرة فى اجتيازه أكثر من ثلاث ساعات. ومع ذلك لم يكن هناك شاطئ على مرمى البصر. ولكن فى ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢م، وفى الساعة الثانية صباحاً، صاح بحار من فوق مقدمة السفينة بنتاً، وهو يدعى بودريجو دى تريانو Bodrigo de teriano قاتلاً الأرض الأرض Tierra, Tierra. وبعد دقائق قليلة، استطاع كل واحد أن يميز هذه الأرض من على هذه المسافة عبر الماء، وكان ضوء القمر الأبيض، الذى يغمر الشاطئ يشبه شريطاً رقيقاً من الفضة، ممتداً على خط الأفق.

وواصلت السفن إبحارها، وكان البحارة لايزالون يهللون بحيث سبق صياحهم سرعة الريح، وكانت الدقة تعوذ تلك الأصوات الجشة التى كانت تنطق بذكر الله، وقد حاول البعض من البحارة أن يغنى، ولكنهم لم يتمكنوا، بل انفجروا بالبكاء (ربما بسبب فرحة وصولهم الى جزر الهند، كما كانوا يعتقدون).

وقد فاز كولبس بمكافأة ملكة أسبانيا التى خصصت لأول رجل يرى الأرض (أمريكا) فكان كولبس قد رأى الضوء الذى يغمر الأرض المجهولة قبل أن ينشد رودريجو دى تريانو أناشيده بأربع ساعات، وقد حمل فجر يوم السبت ١٣ أكتوبر لكولبس مفاجأة عمره، فعلى الشاطئ الذى كان يتوقع أن يجد عليه مدناً كبيرة وحضارة عريقة رأى أناساً يجرون من حوله وهم عراه تماماً كما ولدتهم امهاتهم، وبمجرد ان وطأت اقدام الأسبان شاطئ جونا هانى Guana Hani أو شاطئ جزيرة جوانا أسماها كولبس سان سلفادور.

وتجمع الهنود الاراوك الذين كانوا يعيشون على الشاطئ حول كولبس وبحارته، وخوف هؤلاء الهنود من البحارة أقاموا على مسافة بعيدة من الشاطئ. وفى هذا الصدد كتب كرسستوفر كولبس فى أول لقاء معهم يقول: "وبما أننا أصبحنا أصدقاء فقد أعطيناهم قبعات حمراء وعقوداً أخرى من الخرز الزجاجى ولكن كل هذه الأشياء ليست ذات قيمة، ومع ذلك فإنها ادخلت عليه بهجة كبيرة، وجعلتهم أصدقاء لنا، لأنها كانت أشياء غريبة بالنسبة لهم، لأنهم لم يروها من قبل. وبعد عودتنا من الشاطئ إلى القوارب التى ستنقلنا إلى السفن سبحوا من خلفنا وأحضروا إلينا البيغاوات

ولفائف من غزل القطن، ومقدارا ضئيلا من المال الذى يمكنه، وفى مقابل ذلك منحناهم بعض اللعب.

ولم تكن أجسام هؤلاء الناس سوداء، ولا بيضاء، ولكنها بالأحرى كانت تمثل أجسام سكان جزيرة الكنارى، وعندما التقى معهم البحارة لم يروا معهم أسلحة كالبنادق والسيوف، لأنهم لم يعرفوا أى شىء عن هذه الأسلحة. وعندما عرضنا عليهم سيوفنا أمسكوها من الشفرة وقطعوا بها أنفسهم. وعند هذا الحد اعتقد كولبس أنه وصل إلى جزر الهند، ولهذا سمي هؤلاء بالهنود.

وكتب كولبس، فيما بعد عن هؤلاء الهنود يقول: "لقد خرجوا إلى السفن فى قوارب صغيرة صنعت من سيقان الأشجار، فكان كل قارب منها عبارة عن قطعة واحدة صنعت بدقة، وكان البعض منها صغيرا للغاية، بحيث يتسع الواحد منها لخمسـة وأربعين شخصا.

وقد بنيت منازلهم على شكل أكشاك، كان البعض منها كبيرا، فهى تشبه خياما فى معسكر شيدت بلا تنظيم وبلا شوارع.

وبالطبع وجد كولبس أن أهل هذه الجزر (هيسبانيولا* وغيرها) جبناء للغاية فهم لم يعرفوا أى شىء عن الحرب، وتحدثوا عن الأسبانيين وعن سفنهم الضخمة التى تشبه الطائرة، وعن مزايهم، وبنادقهم ، وكأنهم هبطوا من السماء. وتحدثوا أيضا عن أعدائهم وهى القبيلة التى تقطن الجزيرة الأخرى، التى كان سكانها فى بعض الأحيان يغيرون عليهم، وينقلونهم بالقوة إلى جزيرتهم ويأكلونهم. ويعرف هؤلاء بالكارييبس

* رفعت الأعلام الإسبانية على هيسبانيولا وكوبا، وجزر الكارييبى الأخرى، وعلى الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية، وقد رسم على هذه الأعلام صور للقلع وللأسود، وتمثل هذه المناطق الإستكشافات التى تمت بمعرفة كولبس ، والتى أنجزت فيما بعد بمعرفة المستكشفين الأسبان. وقد زركش ساحل أمريكا الشمالية بالأعلام الإنجليزية، بحيث ان مياه هذا الساحل قد تميزت بهذه الأعلام. ويشير البحر الذى اكتشف بمعرفة الإنجليز إلى رحلة جون كابوت الأولى التى وصل اثنتانها إلى نيوفولاند فى الفترة ما بين ١٤٩٧، ١٤٩٨ م (المؤلف).

Caribs، الذين من أسمهم يشتق اسم الكاريبيان Carbbian. وفي بعض الأحيان يسمى سكان هذه الجزيرة بالكانبس Canibs، التي منها اشتقت كلمة الكانيبال Cannibal ومعناه متوحش (أو من أكل لحم البشر).

وكتب كولبس عن الهنود أنفسهم يقول : أتهم سليمان النية ومسلمون واستطرد في كتابته يقول "استطاع خمسون أسبانياً أن يقهروا جميع هؤلاء الناس.

وفي السنوات التالية، جاء الأسبان إلى جزر الهند الغربية، ليستقروا فيها، فاستعبدوا أعداداً كبيرة من هؤلاء الهنود، بلغت مئات الألوف فكانوا يعملون حتى الموت، كما كان يعذبون أو يقتلون بالجملة. وفي عام ١٤٩٠م، عاش حوالي ٣٠٠,٠٠٠ شخص من الهنود الأراواك أو التيانو Tiano في هيسبانيولا، وبعد أكثر من خمسين عاماً من الحكم الأسباني، أي في عام ١٥٤٨م، كان يوجد هناك فقط ٥٠٠ شخص من هؤلاء الهنود الذين تركوا على أرض الجزيرة.

وبحث كولبس، لمدة ثلاثة شهور فيما بين جزر أمريكا عن وجود شيء ما يشبه الصين أو اليابان، لكن دون جدوى، كما بحث أيضاً وبحماس شديد، بل وبصفة خاصة عن الذهب والتوابل.

وألقي كولبس القبض على عدد قليل من الهنود، لإفهامهم بمطالبه ثم تركهم بعد ذلك ليصبحوا أدلاءه، فقاتلوه إلى كويا، وبعد ذلك إلى هيسبانيولا، وهناك وجد كولبس قطعاً صغيرة من الذهب، كما وجد كميات صغيرة أيضاً من الذهب في هيسبانيولا، فظن أنه يوجد هناك بكل تأكيد مناجم للذهب.

ولكن أين كانت توجد المدن الكثيرة المحصنة، والتابعة لزعيم الصين العظيم الذي كتب ماركو بولو عن أسواقها الدائمة وعن موانئها المكتظة؟ وهناك سمع كولبس الهنود يتحدثون عن حاكم قوى يمتلك كثيراً من الذهب، وكان هؤلاء الهنود يسمون هذا الحاكم باسم كامى Kami، وعندئذ عرف كولبس أن هذه طريقتهم في النطق بحيث ينطقون كلمة Kami بدلاً من كلمة خان Khan، وبعد ذلك غير كولبس تفكيره، واعتقد بعد كل هذا أنه من المرجح أن تكون هذه البلاد هي بلاد الصين.

وهكذا ، فإن كولبس كان يغير أفكاره في حلة وتراحاله، أى عندما ينتقل من

جزيرة أخرى، وكان يقنع نفسه أنه وجد الأقطار التي تقع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

وفي ذات ليلة، عندما كانت السفينة سائتا ماريا تبجر بعيداً عن ساحل هيسبانيولا، رغب ماسك الدفة أن يغفو بعض الوقت، وأخير صبى السفينة أن يتولى إدارة الدفة، ولكن هذا الصبى رفض، لأن كل البحارة كانوا نياماً، وفجأة صرخ هذا الصبى بسبب ارتطام السفينة بلسان رملى مخيف تحت المياه، فى الوقت الذى كانت فيه السفينة تسير بسرعة، فادى ذلك إلى تحطيم ألواحها الخشبية، وبكى كولبس لأن السفينة سائتا ماريا قد تحطمت فبقى لديه سفينتان فقط، وعلى متنهما رجال أكثر من حمولتهما، فقرر كولبس أن يبني حصناً على الجزيرة كى يترك فيه عدداً من البحارة، ليستقروا ويبحثوا عن الذهب، وانتقل كولبس بنفسه إلى السفينة * نينا.

وظل * كولبس * يبحث عن جزر الهند حتى منتصف شهر يناير، ولما لم يعثر على شىء بجزر الهند، عاد إلى وطنه.

وقد كانت رحلة العودة أكثر خطورة من رحلة الذهاب نحو الغرب، فالإبحار كان جميلاً، لأنه كان مصحوباً بريح غربية قوية دفعت السفينة نينا والسفينة بنتا إلى نقطة تقع جنوب الأورس، وبعد ذلك، وفى منتصف شهر فبراير، هبت على السفن أعنف العواصف الشتوية التى من المعروف أنها تهب على المحيط الأطلسى.

ولقد عاشت السفينة نينا من دقيقة الي أخرى ولعدة أيام في العواصف البحرية، وقد هزتها هذه العواصف، وجعلتها فى حالة عدم إستقرار، بل تعرضت لخطر الغرق، وضلت السفن عن بعضها.

* عندما وصلت سفينة كولبس الى هيسبانيولا، قام برسم صور للهنود الأمريكيين من وجهة نظره، كى يقدمها للأوربيين فى عام ١٤٩٣م.

* ذكر كولبس عند عودته من رحلته الأولى فى ٤ مارس عام ١٤٩٣ م، أنه وجد أن ساحل لشبونة البرتغالى يشبه ساحل جزيرة هيسبانيولا.

* وكان كولبس قد خاطر برسوه على ساحل البرتغال التى كانت معادية لأسبانيا، وسبب ذلك يرجع إلى هروبه من العاصفة التى أحاطت بسفينته (المؤلف)

وكان كولبس فى حالة رعب، لأن كلا من السفينتين نينا وبنتا كانتا على وشك الغرق وسوف لا يسمع العالم أبدا أى شئ عن الأخبار العظيمة التى حققها. وكان هذا أكثر مما استطاع كولبس أن يتحملة. وفى حالة من اليأس، كتب كولبس على قطعة من الجلد مسودة تقريره ولفها ووضعها فى أسطوانته بحيث تمنع تسرب المياه إليها. وبعد ذلك القى بهذه الأسطوانة فى البحر، أملا فى أنه فى حالة غرقه، سوف تندفع هذه الأسطوانة، مع التيار إلى الشاطئ وهناك يمكن العثور عليها من جانب أى شخص آخر. ومن الممكن أيضا أن تختفى إلى الأبد.

ومع ذلك فقد بقيت السفينة الصغيرة القوية نينا، تسير على سطح المياه، وعند جزيرة سانت ماريا، وجذت نينا ملجأ لها، وتعتبر هذه الجزيرة أحد جزر الأنورس التى تتبع البرتغال. وفى هذه الجزيرة هرب كولبس بشق الأنفس، ومع ذلك فقد سجنه البرتغاليون.

وتمكن كولبس من الهرب ليقابل عاصفة مزقت أشعة السفينة نينا، وربما أُلقت بها إلى القاع. ولو لم يكن كولبس بحارا ماهرا، مابقى على قيد الحياة. وفى النهاية رأى كولبس ساحل البرتغال. وفى يوم مشرق وجد الفرصة ساذجة للهروب من البحار الجبلية. وذلك بالقفز من فوق حاجز رملى الى مياه نهر تاجوس Tagus الآمنه وكان هذا النهر بالقرب من لشبونة.

وقد اندفع بحارة السفينة نينا إلى الشاطئ فاندش الحراس حين تحدثوا اليهم بغير تفكير عن عبورهم للبحر، وعن كشفهم لجزر الهند، ولكى يبرهنوا على ذلك فقد عرضوا أسراهم من سكان جزر الهند. وانتشرت فى الحال أخبار الكشف على طول الشاطئ.

ولم يعرف كولبس على وجه التحديد ماذا سيحدث له عندما يسير على التراب البرتغالى. فسوف يحاول الملك جون ايقافه واخفاه بعيدا فى سجن مظلم، وبذلك يحرم أسبانيا من ثمار هذا الكشف. فإذا اراد الملك جون ان يفعل أى شئ من هذا القبيل، فإن ذلك قد جاء متأخرا، فقد انتشرت الأخبار عن هذه الرحلة، وابتلع كولبس أى مرارة شعر بها نحو هذا الرجل (الملك جون) الذى كان قد رفض خطة كولبس من قبل.

ولكن حدث العكس فقد عامل الملك جون كولبس معاملة طيبة، بل عرض عليه أن يصلح .
له السفينة نينا التى كانت فى حاجة الى اصلاح، ثم ترك الملك جون البطل العائد
"كولبس ليواصل طريقه.

وبعد عدة أيام القت السفينة نينا بمراسيها فى ميناء بالوس، وكانت تحمل على
متنها الهدايا من الببغاوات والهنود، وأرسل كل هذا إلى أصحاب السمو الملكى الملك
فرديناند والملكة ايزابيلا ملكا أسبانيا. وقد استغرقت هذه الرحلة الكشفية ٢٢ يوما،
وتعد أعظم رحلة على مر العصور. وهكذا وفى نهاية مغامرة تعرض فيها كولبس....
لأخطار متتالية، علم العالم المتحضر بأخبار أرض جديدة غريبة تلك الأرض التى سميت
فيها بعد بأمريكا، التى تقع على الجانب الآخر من بحر الظلمات.

العالم الجديد

ذهب كولبس الى امريكا اكثر من ثلاث مرات من أجل البحث عن الصين، التي لم تكن سرا غامضا يقلق كولبس ويملؤه بالحنن، ولكن الأرض التي كان قد اكتشفها قد بهرته. وكانت هذه الأرض تعرف بأرض "الألف تعويذه". فقد بهره جمالها الذي ظهر أمام أعينه.

وكان كولبس قد ذهب الى كوبا ، وبورتوريكو وجاميكا وجنوب أمريكا. وبعد ذلك ذهب صوب جنوب ساحل أمريكا الوسطى، فوصل الى بنما. وفي هذه المناطق وجد نفس القصة، بدلا من أن يجد المدن، وجد البرارى الشاسعة، وبدلا من ان يجد القصور المطلية جدرانها بالذهب، وجد الاكواخ المبنية من العشب والخيام المشيدة من خوص النخيل، وبدلا من أن يجد أمراء التجار يرتدون الملابس الحريرية، وجد هنودا لا يرتدون سوى قمصان على ظهورهم.

وقد اقتنع كولبس أحيانا بحقيقة، أن هذه الأرض ليست هى الصين، ولا اليابان، ولا جزر التوابل، ولكنها عبارة عن جزء من العالم الذى لم يسمع الجغرافيون المتعلمون فى أوروبا عنه شيئا من قبل. فكانت هذه الأرض عبارة عن عالم آخر هذا ما أطلقه عليها كولبس، ومع ذلك أصر حتى مماته على أنه قد وصل إلى آسيا.

وقبل أن يغادر كولبس أسبانيا بأيام قليلة، للقيام برحلة الى أمريكا الجنوبية، حدث شئ مثير فى الجانب الآخر من العالم، تمثل هذا الشئ المثير فى إبحار الملاح البرتغالى فاسكو داجاما إلى ميناء قاليقوط فى الهند، فقد أبحر داجاما إلى الشرق عبر المحيط الهندى ويعتبر فاسكو داجاما أول أوروبى وصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا.

ولم يعتقد البرتغاليون بأن كولبس قد وصل إلى جزر الهند، ولكن كان جل اهتمامهم معرفة المكان الذى وصل اليه على وجه الدقة. ورغبوا أيضا فى أن يروا بأنفسهم اكتشافه. وقد حاول كل من الملك وملكة اسبانيا الابتعاد عن منافسة البرتغال واستغاثا ببابا روما فى مساعدتهم فى الحصول على حقهم المطلق فى هذا الطريق

البحرى الجديد.

وجاءت تسوية البابا * لهذه المسألة بتحديد نقطة تقع الى الغرب من جزر الرأس الأخضر بحوالى ١٥٠٠ ميل، وعند هذه النقطة تم رسم خط من الشمال الى الجنوب، شريطة أن تمتلك أسبانيا كل شئ غرب هذا الخط، بينما تملك البرتغال كل شئ شرقه.

وقد إعطى هذا التقسيم الجديد نتوء البرازيل، وجزءا من أمريكا الشمالية الى البرتغال، وذلك لأن راسم الخريطة قد وضعها خطأ شرق هذا الخط. وأما بقية الأجزاء الأخرى من أمريكا فكانت تخص أسبانيا.

وبعد سنوات قليلة دخلت انجلترا وفرنسا السباق بجدية من أجل الحصول على أراض جديدة، وكانتا قد تحديتا بحق أى شخص أو جماعة تقوم بتقسيم هذه الأرض، ولما كان التقسيم البرتغالى الأسبانى القديم قد تم لإبعاد فرنسا عن الأراضى الجديدة، قال الملك الفرنسى فرانسيس الأول: ينبغى أن أرى وصية أدم وأعرف كيف قسم الأرض.

وإذا لم يكن العالم الجديد هو جزر الهند، فماذا يكون؟ كان هذا هو السؤال الذى وجه لكولبس المكتشف العظيم الذى مات دون أن يسمع إجابة عن هذا السؤال. وكان من الممكن جدا ان يصل كولبس الى هذه الإجابة، فكان اعتقاده ينحصر فى ان الأرض التى اكتشفها تقع فى مكان ما بالقرب من جزر الهند. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرض فى المكان المطلوب البحث عنه، فهى تقف عقبة فى طريق السفن التى تحاول الأبحار الى الصين. ومن المرجح أنه توجد قناة فى مكان ما أو يوجد بوغاز يمكن للسفن ان تمر من خلاله الى "جزر الهند".

وكان الغرض من رحلة كولبس الأخيرة أن يجد بوغازا كهذا. وكان هذا هو الهدف المحدد لعدد من الرجال الذين تابعوا خط سيره بعد ذلك إلى أمريكا لعدة قرون.

* فى مايو عام ١٤٩٣م، حدد البابا اسكندر السادس الأراضى المجهولة فى العالم، وقسمها بين الملك جون ملك البرتغال، والملك فرديناند، الملكة إيزابيلا ملكا أسبانيا. وقد وقع الجميع على هذه المعاهدة . معاهدة توريسلاس . وفى النهاية حدد موقع الخط الذى يقسم نصيب الدولتين (المؤلف).

وقبل أن يبدأ كولبس ذلك البحث، قام بعمل بطولى تمثل فى عبور المحيط وكان هذا العمل كافيا فى حد ذاته فى تحريك طموحات الأشخاص الآخرين، ففى ذلك الوقت تمنى كثير من البحارة، بل حاول كل واحد منهم ان يكون الأول فى الوصول الى كاشى، وذلك عن طريق الإبحار تجاه الغرب، وعبر الطريق البحرى. وبعد خمس سنوات من الرحلة الأولى شكا كولبس بأنه لا يوجد شخص حتى الخياط الا وطلب السماح له بأن يصبح مكتشفاً.

وفى الواقع كان البعض من هؤلاء البحارة الذين قاموا بهذه الرحلة من الملاحين العظام، فكان جيوفانى كابوت واحداً من أعظم هؤلاء البحارة. وكان كابوت هذا قد ولد فى وطن كولبس - بمدينة جنوا بإيطاليا - وبعد ذلك ذهب الى انجلترا وقام برحلة تحت العلم البريطانى، وأصبح يعرف فى ذلك الوقت بجون كابوت.

ولم يكن جون كابوت هذا مقلداً لكولبس بالرة، بل كان له الخاصة بعبور المحيط الأطلسى قبل رحلة كولبس الأولى بمدة طويلة. ولما كان كابوت يعمل تاجراً للتوابل فى المدينة العربية مكة، كان يتشوق لمعرفة مصدر هذه التوابل. وعندما سأل التجار عن ذلك، وجدهم لا يعرفون، ولكنهم قالوا له: إن القوافل التى تجلب هذه السلع تقطع طريقاً طويلاً، وهذه القوافل تحصل عليها بالتالى من قوافل أخرى تأتى بدورها من طريق أطول للغاية.

وكانت هذه القوافل تسافر فى اتجاه الغرب والجنوب، لذلك فكر جون كابوت فى السفر حول العالم، كى يصل الى المكان الذى تأتى منه التوابل، (فمن المحتمل أن يكون هذا الطريق أقصر الطرق). وكان كابوت يرغب فى الإبحار لجهة الغرب وللشمال. وكانت هذه الفكرة محببة اليه، لذلك رغب كثيراً فى تحقيقها.

وعلى سطح الماء المواجه لمدينة بريستول بانجلترا، قابل الرجال الذين عرفوا الكثير عن المحيط الأطلسى الشمالى - البحارة الذين كانوا يقومون برحلات تجارية الى أيسلندا - وكان كابوت قد سافر الى بريستول فوصلها عام ١٤٩٥م. وهناك تناقش مع

البحارة، ومع الأشخاص، الذين يقومون بشحن السفن عن كيفية القيام برحلة عبر المحيط الأطلنطي، وفي الوقت كانت الأخبار قد وصلت الى انجلترا عن نجاح كولبس في الوصول الى جزر الهند.

وفي لندن كان حديث كثير في بلاط الملك هنرى السابع، وفي مكاتب الشحن والمحاسبة (عن الأراضي التي تقع فيما وراء المحيط الغربي).

وبعد سنتين من مجئ كابوت الى لندن، ومعه اقتراحه الخاص بمحاولة الوصول إلى جزر الهند، وافق الملك هنرى السابع على وجه السرعة على تنفيذ هذا المشروع. وكان هذا امرا سهلا ، لأن كابوت لم يطلب أموالا، وقد وافق ايضا بحارة بريستول من قبل على إعطائه كل ما هو في حاجة اليه.

وحصل كابوت على سفينة واحدة، تعرف باسم السفينة ماثيو Mathew والتي كان على ظهرها ثمانية عشر رجلا، وفي ٢ مايو ١٤٩٧ م أبحر من ميناء بريستول، وبعد ثمانية أسابيع تقريبا أى في ٢٤ يونيو من العام نفسه رأى الأرض (أمريكا).
وإنه لمن المحتمل أن يكون هذا هو ساحل اللبرادور، والأكثر احتمالا ان هذه

المنطقة التي وصل اليها جون كابوت هي منطقة نيوفاوند لاند أو نوفا سكوتيا NewFound Land or Nova Scotis التي طالب الإنجليز بملكيته، لأنهم اعتبروها (نيوفاوند لاند) الأرض الجديدة، حتى اذا كان كابوت قد كتب عنها اى وصف فإنه قد فقد، حيث لا يوجد اليوم أى سجل لكابوت نفسه عن أى مرحلة لهذه الرحلة.

وفي العام التالي أبحر جون كابوت مرة ثانية، وكان بصحبته خمس أو ست سفن، وأخذ معه ابنه سبستيان ، ولكن هذه المرة لم يعد كابوت، ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن هناك سجل لقيد حوادث السفن وسرعة سيرها، ولا أى سجل مكتوب، ولكن في عام ١٩٣٩م، أى بعد ٥٠٠ سنة تقريبا، وجدت وثيقة جاء فيها أن جون كابوت كان قد غرق بسفينته، إذن كيف حدث هذا؟ مع أن هذا لا يزال سرا مجهولا.

وقد عاد الابن الذي تحدث كثيرا عن نفسه، بل أخذ نفسه السمعة والمجد اللذين اكتسبهما والده عن رحلته الأولى، ولم يكن البحث حتى ذلك التاريخ يتم بمعرفة الخبراء، فبعد مدة طويلة على وفاة جون كابوت عرفت الحقيقة عن كشفه الأرض

(أمريكا الشمالية)، لهذا تحول التكريم الذى كان سيلحق بابنه سبستيان إلى جون كابوت نفسه، ومع ذلك فقد حاول سبستيان أن يجعل العالم ينس والده، وفى الوقت الذى كان فيه جون كابوت يستكشف نيوفوندلاند، كانت اسبانيا تواصل كشفها لشواطئ الكاريبى، وفى منطقة واحدة وعلى طول شاطئ فنزويلا كان البحر يقذف كثيرا من المحار الذى يستخرج منه كثيرا من اللؤلؤ، وأما عن السكان فكانوا يعيشون فى أكواخ بنيت فوق سطح الماء، وحملت على أعمدة خشبية، وفنزويلا كلمة اسبانية تعنى البندقية الصغيرة، وفى داخل هذه الأكواخ غير المتقنة يوجد اللؤلؤ الذى جمع منذ عدة أجيال مضت، كما وجدت مخازن ضخمة للمجوهرات التى كان لها قيمة عالية فى أوروبا فى ذلك الوقت.

وكان كولبس قد سمع عن صيد اللؤلؤ من مرشديه الهنود، وقد تنبه الأسبانيون- عن طريق تناقل الأخبار وعن طريق البعثات الأخرى التى أكدت أخبار الهنود - الى حقيقة وجود اللؤلؤ، وقد عاد الأسبانيون معهم سلاسلهم المملوءة باللؤلؤ الذى كانوا يحصلون عليه بسهولة ويسر، كما أخذوا معهم أيضا العبيد، وذلك بشحنهم فى السفن، وفى كل الحالات أصبحت أسبانيا من الدول الغنية لسنوات عديدة.

وكان الونزو أجيدا هو أول من قام بالبحث عن اللؤلؤ، وكان هذا الرجل قد خدم مرة مع كولبس كضابط فى إحدى سفنه، فكان قد استخدم خريطة كولبس لإرشاده، وكان أجيدا قد شرع فى الإبحار من اسبانيا عام ١٤٩٩م، فوصل فنزويلا وعاد بعد عام، ولكن الشئ الممتع لنا فى ذلك الوقت، بل الأكثر إثارة من الرحلة نفسها هو أمريجو فيسبوتشى الذى اصطحب معه أجيدا فى هذه الرحلة، فإذا كانت الأسماء هامة، فمن الأرجح للأمريكان أن يتمسكوا ولدة طويلة على أن إسم بلدهم ينبغى أن يتغير من الولايات المتحدة الأمريكية الى الولايات المتحدة الكولومبية، ولكن الأسماء ليست ذات أهمية، فهم قبلوا حادثة عرضية فى التاريخ منعت هذا الشرف عن كرسنوفر كولبس، الذى يستحق بلا شك هذا التكريم وأعطوه الى أمريجو فيسبوتشى الذى لم يفعل شيئا يذكر.

وقد ولد أمريجو فيسبوتشى فى فلورنسا بايطاليا فى نفس العام الذى ولد فيه

كولبس فى جنوا عام ١٤٥١م. وكان إسمه فى البداية أمريجو. فهر يأخذ الشكل الايطالى من الإسم الألمانى أمريشى ، الذى يعنى "الغنى بالقمح" "Rich in wheat" وقد كبر أمريجو ليصبح رجل أعمال ورجل مال حيث كان يعمل فى بيت فلورتين ميديتشى. وفى نفس الوقت كان ممونا للسفن فى فرع ميديتشى فى أسبانيا، وكان على مقربة من الرجال الذين أبحروا بعيدا ليكتشفوا أجزاء مجهولة. وكان الحماس للعالم الجديد قد انتشر على طول الجبهة الساحلية، وقد اصاب هذا الحماس فيسبوتشى الذى كان مدرسا لعلم الفلك والجغرافية والملاحة والذى أصبح بذلك شخصا معتازا فى كل هذه العلوم الثلاثة، وبعد ذلك إتجه الى البحر.

ولم يعرف أحد متى ذهب أمريجو ورأى العالم الجديد. مع العلم بأن الأرض سميت باسمه، ومع العلم أيضا بأن اناسا كثيرين كانوا ضد هذه التسمية. لأن مسألة ذهاب أمريجو ومجيئه، قد دار حولها نقاش استمر أكثر من أربعة قرون.

وكانت البراهين الوحيدة هى خطابات فيسبوتشى التى إدعى فيها انه كشف قارة من المحتمل ألا تقل فى الأهمية عن أمريكا الشمالية. ولم يكن هناك أى سجل عن الرحلة الأولى التى ادعى القيام بها عام ١٤٩٧م- أى قبل إبحار كابوت من ميناء بريستول.

وقد أجمع كثير من الناس على أن فيسبوتشى لم يكن فى إمكانه القيام برحلة فى الوقت الذى قال فيه: إنه قام بها.

وبعد ذلك حدث نقاش حاد ضد الذين لا يصدقون فيسبوتشى الذى أشار فى خطابه المشهورة عن خط ساحلى، من المحتمل أن يضم فلوريدا والمقاطعة التى تقع إلى الشمال منها. ووصف الأرض والهند والحيوانات والطيور والنباتات والمناخ. وقد كتب كل هذا عن هذه المناطق الى لم يزرها مستكشف آخر من بعده بل إن الشاطئ لم ير أحد غيره.

وسواء اكتشف فيسبوتشى أمريكا الشماليه أم لم يكتشفها، فإنه بدون شك قام برحلة إلى البرازيل التى اكتشفت عندما ارسل ملك البرتغال فاسكو داجاما، ليور من حول افريقيا، ثم يتجه بعد ذلك شرقا الى الهند، وكان من هدفه ان يشيد مركزا للتجارة

فى الشرق. ومن أجل ذلك الغرض ارسل عام ١٥٠٠م، اسطولا ضخما مكونا من ١٣ سفينة، ومن ١٢٠٠ رجل كانوا جميعا تحت قيادة بدرو الفاريز دى كابرا Pedro Alvarez de Cabra.

ولبعض الأسباب غير المعروفة، فإن بدرو الفاريز دى كابرا Pedro Alvarez de Cabra بعد أن أبحر مئات قليلة من الأميال على الطريق الإفريقى انحرف فى اتجاه آخر، فبدلا من الدوران حول رأس الرجاء الصالح الإفريقى، نجده يتقدم نحو الشرق، ثم يتجه نحو الغرب، وبعد شهر وصل الى البرازيل فى أمريكا الجنوبية.

ومن المحتمل ان يكون قد أخطأ، ولكن يبدو أن هذا كان من غير المتوقع وكان قليل من البحارة فى ذلك الوقت قد حققوا أعمالاً أفضل من البرتغاليين. ومن المرجح أن يكون بالطبع قد اندفع بواسطة عاصفة أو ربما أن يكون كابرا قد تصرف بناء على أوامر سرية. وعلى أية حال فإنه عندما رأى أرضا طالب على الفور بأن تصبح ملكا للبرتغال، وبخاصة لأنها كانت تقع الى الشرق من الخط الذى رسمه البابا. ولم يكن هناك محل للجدل فى هذا المطلب.

وقد تمثلت هذه الأرض فى نتق البرازيل، التى اكتشفها كابرا، عندئذ أصبحت ملكا للبرتغال، واستمرت تحت سيطرتها حتى حصلت على استقلالها بعد ثلاثة قرون من الزمن.

وبعد عام من زيارة كابرا العرضية للبرازيل كان فيسبوتشى فى ذلك الوقت يعمل لحساب ملك البرتغال، ومن هناك أبحر بإسطول مكون من ثلاث سفن برتغالية صغيرة، ومع ذلك كانت هذه الرحلة على جانب من الأهمية.

ومن البرازيل إتجهت هذه السفن على طول الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية لمئات كثيرة من الأميال. وفى أحوال كثيرة كانت السفن تتوقف لكى يتمكن البحارة من استكشاف الشاطئ.

وفى اليوم الأول من العام الجديد، وصل أفراد البعثة الى منطقة اعتقدوا إنها مصب نهر كبير، وأسموه نهر يناير، وذلك بسبب تاريخ كشفه، لأنه كشف فى أول يوم

من السنة الميلادية.

وثبت فى النهاية انه خليج. حتى ان المدينة التى شيدت فى هذا المكان سميت باسمه، أى باسم مدينه ريودى جانيرو. وبعد ذلك أبحرت البعثة من ريودى جانيرو، ربما لآلاف الأميال صوب الجنوب، حتى وصلت الى مايسمى فى ايامنا هذه بالأرجنتين.

وعندما عاد أمريجو فيسبوتشى* إلى لشبونه عام ١٥٠٢م، أخبر الملك ومستشاريه عن الشواطئ الشاسعة الى كان قد رآها، وتساؤل فيسبوتشى بالقول عما اذا كانت البوابه الجنوبية لتجارة الشرق يمكن الوصول اليها عن طريق هذه القارة التى اكتشفت حديثا والتي تطل على جنوب الأطلسى.

واعتقد البرتغاليون فى أن هذا سيكون له أثر طيب. لذلك ارسلوا أمريجو فيسبوتشى بعد عودته فى العام التالى ليرى اذا كان فى إمكانه ايجاد طريق فيما وراء أمريكا الجنوبية، يصل الى ملقا الميناء البحرى العظيم، الذى يقع فيه شبه الجزيرة الذهبية (جزيرة الملايو). وكان هذا هدف رحلته الرابعة، لكن لسوء حظه ولسوء إدارته انتهت المغامرة بالفشل بعد ان وصل الى الساحل البرازيلى.

وكان قد فقد أربع سفن من السفن الست بسبب هبوب عاصفة بحرية. وبعد شهر من بحثه عن فرص الإختراق أو الإلتفاف حول البرازيل - وهى أكبر مساحة من الولايات المتحدة الامريكية - تخلى فيسبوتشى عن بحثه عن أقصر الطرق التى توصل الى ملقا فعاد الى وطنه. وكان من الأفضل ان يقوم بذلك لأن ملقا كانت على خط مستقيم يبلغ مداه ١٤٠٠ ميل.

وقد نشرت خطابات امريجو فيسبوتشى فى باريس وفلورنسا. وفى أماكن أخرى كثيرة. وكان جميع الأوربيين فى حاجة ماسة لأخبار الأراضى المجهولة، والتى تقع عبر المحيط الأطلسى. وقد قرأت هذه الخطابات بحماسة شديدة، حتى أنه فى عام ١٥٠٧م، ضمت هذه الخطابات فى كتاب صغير يبلغ عدد صفحاته ٥٢ صفحة

* ولد فيسبوتشى مكتشف أمريكا فى فلورنسا بايطاليا عام ١٤٥١م (المؤلف)

وكان هذا الكتيب معنون بـ Cosmo Grapliae Introductio، وقد نشر باللغة اللاتينية، وقد كتب هذا الكتاب بمعرفة مارتن وولد سميولر الذي كتب عن جغرافية ثلاثة قارات من العالم: أوروبا وآسيا وأفريقيا ثم قال: "...في ذلك الوقت اكتشف فيسبوتشي * القسم الرابع من العالم، لذلك فأنا لأجد سببا في عدم تسميته أمريجي أو أمريكا، وذلك باسم مكتشفها أمريكوس. وهكذا فقد حملت هاتان القارتان هذا الإسم (أمريكا) وشوهدت أمريكا مطبوعة لأول مرة في التاريخ.

* كان الأسبانيون المرافقون لفيسبوتشي مسلحين بالبنادق لذلك تغلبوا بسهولة على هنود البرازيل (المؤلف)

العبور عبر حائط الأرض

تقع على شاطئ خليج دريان Darien قارة أمريكا الجنوبية، أى عند مجرى قناه بنما (الحالى)، فقد قاد كريستوفر كولبس الهنود* إلى قمة جبل استطاع من فوقه أن يرى من هذا القطر مساحة أميال، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد رأى زرقة المحيط الواسع والواقع جهة الغرب على مسافة مئات قليلة من الأميال.

وفى عام ١٥٠٢م. أكمل كولبس رحلته الرابعة والأخيرة إلى العالم الجديد. وقد أخبره الهنود بأن الذهب يوجد فى كل أنحاء القطر، أى فى كل أنحاء بلادهم وأروه أيضا البريق الأصفر الذى يخرج من رمال قاع البحر، كما نقبوا عن الحبات الصفراء التى توجد بين جنور الشجرة، وساروا بالطريق البرى طوال تسعة أيام نحو الجنوب، وقالوا : إنه يوجد هناك مملكة كبيرة أغنى من مملكتهم.

وعندما رغب كولبس فى أن يعسكر ويستكشف الأرض منعه الهنود لأنهم كانوا رجالا أقوياء ومسلحين بسهام مسمومة وأقواس قوية. ومع ذلك قرر كولبس المخاطرة بالاستمرار فى الكشف، وكان من نتيجة ذلك ان خاض حربا دموية استمرت ثلاثة شهور وأدت الى مقتل كثير من الأسبانيين.

وفى النهاية تعرض كولبس للتعب والمرض والقلق بسبب تمرد رجاله عليه، ومن السوس الذى دب فى سفنه، وأخيرا القى نظرة حزن على الأرض التى اعتقد انها البوابة إلى الصين والتى طال البحث عنها، وأبحر عائدا تاركا المكان، وعند عودته إلى اسبانيا ابلغ عن القصص الهندية. ومات كولبس بعد سنتين من عودته.

وبعد سنوات قليلة من موته نظمت مجموعة من المستوطنين القاطنين فى جزيرة هيسبانيولا حملة للذهاب الى ذلك القطر، ليروا ما إذا كانت قصص الذهب حقيقية أم لا.

* لقد عبر الهنود بمرارة، وبعداوة لأجيدا، الذى ترك رجاله تحت قيادة فرانسيسكو بيزارو عام ١٥٠٩م، وأبحر الى هيسبانيولا آملا فى الحصول على مساعدة لمستعمرته المتهاكلة (المؤلف).

وقاد الونزو دى أوجيدا هذه المجموعة إلى كوليبيا، وهناك حاولوا الإستقرار على الشاطئ. ولكن الظروف كانت صعبة، فدفعهم ذلك إلى إرسال رسالة إلى هيسبانيولا تفيد أنهم فى حالة مجاعة.

وفى عام ١٥١٠م، أعد مارتن فرنانديز دى انكيزو سفينتين وأبحر إلى مستعمرة أوجيدا فى كوليبيا. وعلى ظهر السفينة بربارا barbara إختبأ مزارع من هيسبانيولا يبلغ من العمر ٣٥ عاما حتى لايدفع أجرة السفر ، وكان هذا المزارع يدعى فاسكو نانيز دى بلباو Vasco Nanez de Balboa.

وقد أتى فاسكو نانيز دى بلباو إلى العالم الجديد، مثل الكثير من جيرانه متوقعا وجود الذهب، ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه رجلا ثريا. ولكن هناك من سبقوه واستولوا على معظم الذهب فاضطر بلباو أن يعمل بالزراعة، التى لم تدر عليه شيئا يذكر، حتى إنه لم يستطع دفع ديونه، لذلك هرب من السجن وأختبأ على متن السفينة بربارا.

وبعد أن سارت السفينة أيام قلائل خرج بلباو من المخبأ. وفى البداية هدده إنكيزو قائد السفينة بتركه فى جزيرة مهجورة، ولكن صفح عنه فى النهاية. وواصلت السفينة سيرها إلى كوليبيا حيث توجد مستعمرة أوجيدا. وهناك أخذت السفينة على ظهرها جماعة أوجيدا لأن اتباع أوجيدا (الباشسين قروا التخلّى عن كوليبيا). وبعد ذلك أبحر إنكيزو إلى دريان الواقعة على برزخ بنما كى يبحثوا عن الذهب. وبدأ بلباو فى التخليط ليتخلص من إنكيزو ، ولم يمض وقت الا ونجح، اذ وضع انكيزو على ظهر السفينة بالقوة وأرسل إلى الوطن. وبعد ذلك تلى بلباو قيادة البعثة.

وفى البداية، لم يرحب الهنود كثيرا بهؤلاء الجدد الذين لايزيدون عن كونهم من الرجال البيض الذين زاروهم فى وقت سابق. وعرف بلباو كيف يتحدث إليهم، فسمحوا له أن يشيد مدينته، وبعد ذلك عملوا معه فى الحقول والمناجم (مناجم الذهب). وفى الوقت نفسه، أصبح بلباو الحاكم والقائد العام لدريان.

وعرف بلباو من هؤلاء المواطنين الكثير عن القطر الذى يجاور وطنهم ففى يوم ما تجمع ضباطه فى منزله كى يقسموا الذهب الذى جمعه من الهنود. وبينما هم

يقومون بوزنه حدث نقاش حاد.

ولم يستطع الهنود ان يفهموا هذا الجنون على الذهب، وقد تقدم رئيس هندي شاب وضرب الموازين وهو فى حالة من الإشمئزار، وبعثر الذهب على الارض وقال: "إذا كان ذلك ماتيفونه، فأستطيع ان أخبركم عن أرض يأكل ويشرب سكانها فى أطباق ذهبية، فالذهب عندهم وفير، شأنه فى ذلك شأن الحديد الذى يوجد لديكم. وقد تنبه فرانسيسكو بيزارو بصفة خاصة الى حديث هذا الهندي.

وأضاف الهندي يقول أيضا :إن هذا القطر يقع نحو الجنوب، ويمكن الوصول اليه بعبور الأرض عند مكان ضيق. وبعد ذلك يمكن السير على شاطئ البحر الجنوبي (البحر الكبير) المحيط الأزرق.

وبينما كان هذا الرجل يتحدث، كان بلباو فى حالة اهتمام وانفعال كبيرين بالمكان الضيق والبحر الكبير، وفى النهاية يمر هذا الطريق عبر هذا الحائط الشاسع المحير، ومن يدري ماذا سيكون هناك خلفه، فربما تكون الصين.

واندفع بلباو نحو المدينة ليعد بعثته، فجدد حوالى ١٩٠ أسبانيا، وبعد أيام قليلة، أنطلق من دريان الى الأمام ومعه مئات الهنود الذين يعملون كحمالين ومرشدين.

وتقدمت البعثة على طول الشاطئ لبرزخ بنما، حتى وصل الى نقطة تبعد مسافة أميال قليلة فقط من موقع القنال التى نعبها اليوم. وقال الهنود: إن مسافة السير الى المدينة تستغرق ستة أيام، بعدها يمكن الوصول الى البحر، ولكن لم يذكروا المسافة الواقعة بين الجبلين الكبيرين، والذين يمكن تسلقهما، كما لم يذكروا لهم أيضا ماتحويه هذه الأودية الرطبة والمستنقعات المليئة بالحمى والأدغال، علاوة على مقاومة الوطنيين للبعثة حيث كانوا ينزلون من فوق التلال ويصوبون سهامهم المسمومة الى أفراد البعثة، فضلا عن خطر الحيات السامة، بالاضافة الى الكثير من الحشرات اللادغة.

وكافح بلباو ورجاله وهم يسيرون فى طريقهم صوب الجنوب عبر لسان من الأرض. وقد امتدت الستة أيام الى ثلاثة أسابيع، وأصبحت كل معاناتهم لاحتتمل.

وكان عدوهم اللدود يتمثل فى الحمى الصفراء، والرعب الذى انتابهم فى الغالب من جانب جيوش النمل حيث لم يكن لديهم أسلحة يستطيعون بها الفتك بهذه الحشود.

فكان عندما يتعرض بحار لمرض الحمى فإنه يتحول الى مجنون، ويبدأ فى مهاجمة رفاقه.

ومن أجل حمايتهم من خطر البحار المريض بالحمى الصفراء كانوا يقومون بربط أيديه وأرجله ويتركونه وراءهم ليموت. وعندما كانوا فى بعض الأحيان يعودون من حيث أتوا، كانوا يرون ماذا ترك النمل من أقرانهم سوى الحظ هياكل نظيفة. لذلك قرر أعضاء البعثة أنه من الأفضل قتل أى شخص يسقط على الأرض بسبب المرض، لأن هذا فيه شفقة عليه.

وفى صباح يوم ٢٥ سبتمبر عام ١٥١٣م، كان لايزال يوجد على قيد الحياة ٦٩ أسبانيا فقط، وطلب بلباو التوقف عند أسفل التل وتسلق ببطء حتى بزغ أفق جديد، ليلقى ببصره على الزرقة المتناسكة للمحيط الهادئ أو البحر الجنوبي العظيم، كما كانوا يطلقون عليه.

وبعد أربعة أيام تقدم بلباو نحو الشاطئ وسار مسافة فى داخل أمواج المحيط الهادئ التى تنكسر على الصخور. وظل بلباو يخوض بدرعه فى وسط المياه حتى وصل الماء الى صدره. وهناك أعلن للريح والأمواج إنها ستتحوّل ملكيتها الى ملك أسبانيا، أى سيأخذ البحر كله والأراضى التى تحيط به.

ومع ذلك فلم يكن ملك أسبانيا قانعا بكل هذا الذى كان قد توقعه.

وكان مارتن إنكيزو قد ذهب الى أسبانيا، وكتب تقريراً عن معاملة بلباو له، وقدم هذا التقرير الى الملك.

وقد رويت قصة الهنّدى الثائر فى البلاط الأسباني الخاصة بالملكة الذهبية، الواقعة فى جنوب دريان، لذا قررت اسبانيا الزحف على هذه المملكة. فقد اعد إسطلولا خصص لهذا الغرض، وكان على ظهر سفنه ١٥٠٠ الف وخمسمائة مغامر أسباني، كانوا قد توجهوا الى دريان. وكان إنكيزو ضمن هذه البعثة التى قادها بدرارياس دافيللا Pedrarias Davila. وفى بعض الأحيان يكتب هذا الإسم على النحو التالى بدرو أرياس دافيللا، الفاتح القوى الذى كان الملك قد عينه بدلا من بلباو، حاكما على المستعمرة الجديدة. وكان دافيللا قد عامل الهنود بوحشية فكانوا يموتون بالآلاف.

وكتب بلباو خطابا الى ملك اسبانيا يتوسل فيه أن يضع حدا لهذه القسوة التى يعامل بها دافيلال الهنود.

ولم يقطع بلباو الأمل فى الوصول إلى الامبراطورية الذهبية التى توجد بعيدا نحو الجنوب. وكان فى الإمكان قطع المسافة الى البحر بكل أمن وسهولة. وفى الوقت الذى كان يعد فيه ببناء سفينتين، وصل على وجه السرعة رسول من طرف دافيلال ومعه رسالة.

وكانت لهجة هذه الرسالة تتسم بالود، وكان الحاكم الذى يقطن مدينة أكلا Acla الجديدة التى تبعد أميالا قليلة من دريان، فى حاجة الى نصيح بلباو بصفة خاصة فى المسائل التجارية. وكان السؤال الذى يطرح نفسه هو : هل سيأتى بلباو على الفور الى أكلا للتشاور أو يأتى بشئ آخر غير ذلك؟

وقد فعل بلباو ماطلب منه، فعند قدومه الى المدينة قابلته على الطريق مجموعة من الجنود التى قامت باعتقاله، وكانت دهشته أنه رأى على رأس هذه المجموعة العسكرية مصدر ثقته ألا وهو الضابط فرانسيسكو بيزارو. سأل لبلباو لماذا يعامله بهذه الطريقة؟ فابتسم بيزارو، وقاده الى السجن.

واستغرقت محاكمة بلباو يوما واحدا، بعده أجبره الحاكم وهو دافيلال المحكمة بأن تحكم عليه بالإعدام، وقبل غروب شمس يوم من أيام خريف عام ١٥١٧م، وفى ميدان مدينة أكلا العام قطعت رأس بلباو.

البحر الواسع الآمن

اعتقدت كل أوروبا بأن الأمة التي تستطيع أن تحقق السيطرة على طرق بحرية جديدة إلى الشرق، فإنه من المحتمل ان تصبح أغنى أمه على الأرض. فبعد كشف كولبس كانت كل من البرتغال وأسبانيا تتنازعا هذه الغنيمة الكبيرة.

وكان البرتغاليون بصفة دائمة يتكتمون أخبار كشفهم حتى أصبحت الخرائط والجدول والتقارير فى حالة سرية تامة، وتحت حراسة مشددة، وبقيت محجوزة بحيث لم يطلع عليها أحد فى المكتبات الملكية فى لشبونه ومدرید.

وبعد عشرين عاما من كشف كولبس، قضى ضابط بحرى برتغالى ساعات طويلة، وهو منكب برغبة شديدة، يقرأ خرائط العالم الجديد، وجزر الهند، والطرق البحرية المعروفة. وكانت هذه الخرائط قد حفظت فى غرف الخرائط الحكومية فى لشبونه. وكان هذا الضابط يدعى فرناندو دى ماجلاس f.fernando de Magallaes.

كما كان يدعى بالانجليزية فرديناند ماجلان، فكان يبدو عليه الكآبة، ومع ذلك كان ذا قوة خارقة وإرادة حديدية. وكان قد جرح فى إحدى رجليه عندما كان يحارب المراكشيين فى مراكش. وسبب له هذا الجرح عرجا دائما. وفى ذلك الوقت وفى الثلاثين من عمره وجد مشروع حياته أو عمره.

وكان جوز الطيب والتوابل تأتى جميعها من جزر ملقا أو من جزر التوابل. ولكن البحارة البرتغاليين حاولوا منذ ذلك الوقت إيجاد طريقهم إلى جزر التوابل. ففى عام ١٤٩٨م أبحر فاسكو داجاما من حول جنوب أفريقيا، ثم سار جهة الشرق حتى وصل الى مركز ملقا التجارى الواقع فى شبه جزيرة الملايو. وكان ماجلان قد وصل الى ملقا عندما كان يعمل فى خدمة البحرية (الأسبانية). وكان الطريق الذى سلكه والمؤدى الى ملقا طويلا ومحفوفا بالمخاطر، وتساهل ماجلان بالقول : لماذا لايحاول إيجاد طريق آخر يبدأ من جهة الغرب عند المحيط الأطلسى بحيث يصل الى أمريكا (أو العالم الجديد)، وبعد ذلك يمر عبر المحيط الذى كان بلباو قد رآه من قبل. وقال ماجلان بأن شواطئ

بما يفصلها عن جزر التوابل كتله واحدة من الماء.

وإذا استطاع ماجلان الوصول الى جزر التوابل بالإبحار غربا، فإنه فى هذه الحالة سيكون فى استطاعته الاستمرار فى الطريق البرتغالى الذى يتجه الى ملقا، ثم يتجه إلى جهة الغرب. أى الى الهند. ومن الهند يدور من حول جنوب أفريقيا. وهكذا، حتى يصل مرة ثانية الى وطنه أى إلى البرتغال. وبمعنى آخر، فإنه يذهب صوب الغرب، ويواصل مسيره فى نفس هذا الإتجاه. وفى هذه الحالة يمكن الدوران من حول العالم. وقد وجد خطاين عند تحقيق هذه الرغبة، أولهما أن ماجلان اعتقد فى وجود مضيق ليس من الصعب الوصول اليه، الذى يقوده فى طريق مستقيم بحيث يمر من خلال عائق الأرض الأمريكية. وبعد ذلك يدخل محيط بلبار. وثانيهما: انه كان يتمثل فى تخمين ماجلان الخاص بعرض المحيط الهادى، فكان تخمينه أن عرض هذا المحيط يبلغ ٦٠٠ ميل، وهو يمثل المسافة الفعلية التى تبدأ من الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية، وحتى جزر ملقا. ولكن عندما يكون المسير فى خط مستقيم فإن طول هذا الطريق يزيد على ١١٠٠٠ ميل.

وعلى وجه السرعة، واجه ماجلان مشكلة ترجع الى نزاهته والى هيمنته على الأسطول، ومن أجل ذلك واجه معارضة سيئة من قبل الملك عمانويل، فعندما طلب من هذا الملك القيام بمأمورية جديدة، رفض هذا الملك بفتور، لذا قرر ماجلان مغادرة البرتغال إلى الأبد.

ولكن بعد ذلك جمع ماجلان مجموعة صغيرة من أقاربه، ومن الأصدقاء الموثوق بهم، وأوكل اليهم القيام بمشروعه الكبير. الذى يتمثل فى الإبحار حول العالم وسافر معهم الى اسبانيا كى يقف على مدى إمكانية المساندة التى يمكن الحصول عليها. وفى مدينة سيفيل Seville (أشبيلية) تزوج ماجلان من ابنة رجل ثرى، وفى نفس الوقت كان موظفا كبيرا فى الحكومة. وقد فتح هذا الزواج الطريق أمام ماجلان فقد أوعز المستشارون الى الملك الشاب تشارلس الخامس Charles 5 بقبوله لمشروع

* تتبع ماجلان مدينة ملقا الواقعة فى شبة جزيرة الملايو عام ١٥١١م، أى منذ أن احتلت بمعرفة الأدميرال الونزو دى البوكيرك البرتغالى (المؤلف) ماجلان وتنفيذه. ونتيجة لذلك فقد زود

الملك ماجلان * بخمس سفن و٢٣ بحارا.

ولكن كانت هذه السفن قديمة بحيث يمكن للماء أن ينفذ منها، فضلا عن أن عددا كبيرا من البحارة كانوا كسالى بل يجهلون تماما فن الملاحة البحرية، فكانت غالبيتهم من المتسكعين والمجرمين الذين كانوا من نزلاء السجون. وكان هدفهم من الإلتحاق بهذه البعثة هو الهروب من شحن السفن، ومع ذلك فقد جعل ماجلان كل الأطقم تقوم بترميم وإعداد السفن الصغيرة التي كانت فى حالة يرثى لها، وهكذا، ومنذ الوهلة الأولى لم يتعهد أفراد هذه البعثة بالإلتزام بما أوكل اليهم.

واستغرق العمل الذى قام به ماجلان فى ترميم سفنه عاما كاملا، وقد أصبح بحارته مع ذلك فى حالة جيدة، بحيث كان فى إمكانهم القيام بمهمتهم. وفى ٢٠ من شهر سبتمبر عام ١٥١٩م بدأت البعثة مهمتها، فمرت بجزر الكناريا، ومن بعدها اتجهت إلى الجنوب، ثم إلى الغرب حتى وصلت إلى البرازيل، وتعرضت فى جنوب المحيط الأطلسى إلى عاصفة شديدة، وفى الوقت نفسه نقصت المؤن، ومع ذلك فإن الروح المعنوية لأفراد البعثة كانت عالية.

وبعد رحلة مرهقة، استمرت أربعة شهور، وصلت السفن إلى مصب نهر اللابلاتا الشاسع، الواقع على الساحل الذى يسمى فى الوقت الحاضر بساحل الأرجنتين، واستمرت البعثة بعد ذلك فى مواصلة السير فى اتجاه الجنوب. وبعد ثلاثة أسابيع وصلت البعثة إلى ذلك الجزء من الساحل بحيث توقع ماجلان وجود المضيق، وفى ذلك تلمس الأسطول الطريق، وأخذ رجاله يتفحصون كل منفذ فى الشاطئ، وفجأة وعند الدوران من حول الرأس صاح الحراس قائلين: أن المياه الصافية تمتد حتى مدى رؤيتهم. وكان ماجلان يأمل فى أن يبدأ طريقه تجاه الغرب، لكن فى اليوم التالى، وصل إلى الشاطئ مباشرة. وفى الواقع كان قد أبحر مسافة فى داخل الخليج.

ولقد كان ذلك خبرة قاضية بالنسبة له بحيث جعلته يفكر فى العودة، ولكن ماجلان تمالك نفسه، وقرر الاستمرار فى الإبحار، وعندما لفتهم رياح باردة أرسوا السفن فى ميناء سنت جوليان Saint Julian فكانت الرياح تهب على هذه الميناء على مسافة آلاف الأميال من جنوب نهر لابلاتا. ومن هناك أعلن ماجلان

انه بدلا من الذهاب الى أرض الوطن قرر المكوث طوال فصل الشتاء مع أن اليأس كان قد دب في قلب كل بحار. ولهذا خطط القبودانات الأسبان الثلاثة وهم جاسبار دى كويسادا Gaspar de Quesada ولويس دى مندوز Lewis de Mendoza وجوان دى كارتاجنا Juan de Cartagena للقيام بالثورة على ماجلان. ففي اليوم التالي، قاد كارتاجنا قوة مكونة من ٣٠ رجلا للصعود على ظهر المركب سان انتونيو San Antonio، وذلك للإستيلاء عليها، وفي الوقت نفسه عاد القبودانات إلى سفنهم الخاصة، وأخبروا أطقمتها بهذا التمرد كي يكسبوا مساندتها. وفي الواقع. كان موقف ماجلان صعبا لأن ثلاث سفن من الخمس أصبحت ضده، ولكنه كان في هجومه المضاد اسرع من التمردين. وقد أرسل ماجلان قاربين الى سفينة مندوزا، وكان بالقرب الأول خمسة رجال بقيادة مدير شرطة ماجلان. وقد ظن الكابتن مندوزا ان ماجلان ارسل رسالة إستسلام، وبذلك سمح للبحارة الخمسة بالصعود الى السفينة فيكتوريا، وتم بعد ذلك تبادل حديث قصير وفي تلك الأثناء، كان القارب الثانى يقترب خلسة من السفينة فيكتوريا، وفجأة قفز إسبينوزا على ظهر السفينة الموجود عليها مندوزا، وطلعه بخنجر في رقبته فأرداه قتيلا على ظهر السفينة، وتسلق بحارة القارب الثانى وهم ممسكون بسيوفهم، وعلى الفور استسلم البحارة المتمردون وهم في ذهول.

ونتيجة لهذه المعركة أصبح عدد سفن ماجلان* ثلاث سفن ضد سفينتين وأما

* عندما قطع ماجلان مسافة ١٥٠٠ ميل تجاه الشرق من الفلبين. وجد مصادفه جزرا، قام سكانها بسرقة السفينة فيكتوريا وأطلق طاقم مركب البعثة لقب اللصوص على سكان هذه الجزر التي تعرف في الوقت الحاضر باسم جزر المارياناس Marianas.

وكان الهنود أكثر عددا من الأسبانين التابعين لماجلان، لهذا فإن أطقم السفن أسموهم باتاجون والكلمة الأسبانية الدالة على ذلك هي الحيوان الذي يسير على قدميه. وكان السكان يرتدون جلود حيوان التابير، وكان أغلبهم من السكان البدائيين الذين لم ير الأسبانيون مثيلاً لهم من قبل. وقد أسر الأسبان واحداً منهم، ولكنه مات فوق ظهر السفينة فيكتوريا. وفي القرن السادس عشر وجد رسم لسفينة ماجلان المعروفة باسم فيكتوريا والتي نقش عليها حروف لاتينية، وتقرئ هذه الحروف مراكبى الشراعية هي الأجنحة والمجد هو مكافأتى.

وفي جزيرة ماكتان Mactan الواقعة بالقرب من سيبو Cebu، في الفلبين ، قتل ماجلان بواسطة الوطنيين (المؤلف).

الباقي فكان أمرا سهلا. وفي تلك الليلة أرسل ماجلان قوة مسلحة للقضاء على بقية المتمردين، وتولى هو قيادة السفن واعتقل زعماء المتمردين. ففي يوم واحد أنهى ماجلان التمرد. وجعل أعداءه تحت رحمته. وقد أسف جميع البحارة على ما بدر منهم. وأعدم كويسادا حتى يكون عبرة لأى بحار يفكر فى المستقبل فى القيام بأى تمرد. وفى أقصى الجنوب، يأتى فصل الشتاء فى شهور يونية، ويوليو، وأغسطس. ففي نهاية شهر أغسطس يكون الجليد قد بدأ فى الذوبان. وفى هذا الوقت، كان ماجلان قد أمر سفن الأسطول باستئناف طريقها الشاق نحو الجنوب. وفى تلك الأثناء تحطمت السفينة سنتياجو فى أثناء الشتاء، وفى هذا الوقت بلغ عدد سفن الأسطول أربع سفن فقط.

وعند مغادرة ميناء سانت جولييان. أنزل ماجلان عقوبة صارمة على كارتاجنا ومساعدته، وهما من المتمردين. وكان البرد لايزال قاسيا. وقد أخذ الرجلان الى الشاطئ فى ذلك الجزء الثانى والموحش من العالم، وتركهما هناك، وبالطبع لم يسمع الرجال عنهما أى شىء مرة ثانية. لم يسمع الرجال عنهما أى شىء مرة ثانية. وفى نهاية الشتاء، كانت الرياح عنيفة مما جعل الإبحار على طول الساحل فى اتجاه الجنوب شاقا. وفى ٢١ ديسمبر ١٥٢٠م، دار الأسطول حول لسان من الأرض، وهناك دخل فى خليج متسع. وكان هذا الخليج محاطا بالأرض تقريبا، واستمرت سفينتان فى المسير نحو الغرب حتى وجدتا فتحة فى الجانب الآخر من الخليج، والتي سمحت للأسطول بمواصلة طريقه. ودل ذلك على وجود بداية قناة طويلة تقع فى الجنوب وتصل بين محيطين، وسميت هذه القناة بمضيق ماجلان.

وفى تلك الأثناء، سارت السفن مسافة نصف ميل بين الجروف العالية - التى تقع فى مجرى متعرج وواسع فى بعض الأماكن، ومغلق فى البعض الآخر - ثم واصلت المسير مسافة ٣٧٥ ميلا، ولم يكن هناك الا أمهر البحارة لكى يستطيعوا العبور بسفينة صغيرة فى أمان من خلال هذه المضائق.

ولم ير أثر للجنس البشرى فى هذه المناطق. ولكن فى أثناء الليل تقطعت الجروف باللهب، وبقيت النيران مشتعلة - بواسطة الوطنيين الذين لم يغيروا أساليب حياتهم منذ

العصر الحجري، ولم يتعلموا ابدا كيف يوقدون اللهب، فكان على كل واحد منهم أن يحتفظ بنارحلتة (عدد من الأكواخ) مشتعلة طوال الوقت، وسمى الأسبان هذه الأرض باسم تيرودل فيوجوTiero del fuego أى أرض النار.

وقد قضى ماجلان أكثر من خمسة أسابيع وهو يحاول العثور على طريق من خلال هذا المضيق وأخيرا، اقترب من ساحل شيلي، ورأى أمامه المحيط العظيم . وعندما رأى البحارة ذلك أصبحوا على ثقة بسرعة الوصول الى ملقا، وتحقيق الثروة فى النهاية. وأطلقوا صيحات الفرح، ولكن ماجلان لم يشاطرهم ذلك، ولكن الرجل الحديدى (ماجلان) انفجر بالبكاء من شدة سروره. وتعبيرا عن عرفانه بالجميل.

وفى تلك الأثناء، كانت إحدى السفن، وهى السفينة سان أنتونيو San Antonio تتلکأ فى الخلف، وكان ربانها وهو ابن عم ماجلان الذى كان يدعى استيفاجوميز Esteveo Gomez، قد فقد أعصابه، وقام بتحريض زملاءه على القيام بمؤامرة جديدة، كان الهدف منها الهروب، والتخلى عن مهمة الكشف، وفى تلك الأثناء، كانت السفن تواصل إبحارها متقدمة نحو الامام، بينما كانت هذه المجموعة الموجودة فى الخلف تدبر مؤامرة ضد قائدها (ماجلان). وقد أبحرت هذه المجموعة من خلال المضيق المؤدى الى المحيط الأطلسى متجهة الى أسبانيا.

وكانت السفينة التى تخلت عن مهمتها هى أكبر السفن الأربع، وكانت تحمل على ظهرها معظم كميات التموين. وفى الوقت نفسه، كانت أمكانية نفاذ الطعام بالنسبة للسفن التى تسير فى المحيط (الهادى) وشيكة الحدوث، بل كانت تمثل أمرا مخيفاً بالنسبة لغالبية البحارة المخلصين، لذلك فكر الجميع فى العودة، ولكن لم يحدث شئ من هذا أو ذاك.

ولكن ماجلان لم يكن هكذا، وقال على البحارة ان يواصلوا المسير حتى ولو أكلوا الجلود التى تغطى أفنية السفن، وقد لبى البحارة مطلب ماجلان هذا، وبعد شهرين من المسير بجوار الشاطئ الشيلى، وأصلت السفن الثلاث المتبقية المسير فأتجهت أولا نحو الشمال كى تخرج من المنطقة الباردة. وبعد ذلك إتجهت البعثة جهة الغرب فى محيط ضخم.

وسارت السفن، وكان النسيم العليل، والماء الهادئ يتعقبانها، فالمسير كان سهلا وسريعا. لأن هذا المحيط هادئ، حيث أسماء البحارة الباسفيك. أى البحر الآمن. وقد فقد البحارة حماسهم، لأن الأيام كانت تمضى الى أسابيع، والأسابيع تمضى عبثا الى شهور وهم يتفحصون هذه الرقعة المترامية المياه. التى لا يمكن تصديقها. وقبل أن يروا أية أرض على الإطلاق. كانوا قدر أبحروا تقريبا قدر المسافة التى أبحرها كولبس للمحيط الأطلسى بمرتين. وبعد ذلك وصلوا الى جزيرة صغيرة جدا لم يحصلوا منها على أية مساعدة أو على أية راحة. وفى تلك الأثناء، كان لايزال أمام البحارة آلاف الأميال. ففى ذلك الوقت تعرضوا للحرارة القاسية والجاعة والمرض حتى الموت. ومع ذلك، كان على ماجلان ان ينجز ماتعهد بأنجاهه. لهذا كان يتظاهر بالشجاعة حتى أن لزم الأمر ان ياكل الجلد الملفوف حول حوض السفينة. وقد سردت قصة هذه المحنة فى تقرير حفظ بمعرفة أحد البحارة. وجاء فيه مانصه "اضطررنا لتناول فتات الخبز أو لباب الخبز. والدقيق المتبقى، الذى كان فى ذلك الوقت مملوا بالديدان. وكنا نشرب الماء الرديء المصفر اللون. فضلا عن تناولنا لقطع الجلد، الذى كان ملفوفا حول أحواض السفن، وبذلك، أصبحت لثة أسناننا متورمة بسبب الجاعة والطعام الرديء فضلا عن ذلك فقد تعرضنا للجرب، وقد كان الكثير منا قد مرض بل كان البعض الآخر منا قد مات.

وفى النهاية، وبعد إبحار ماجلان من جنوب أمريكا بأربعة شهور تقريبا. وجد أرضا جديدة بالزيارة، كانت هذه الأرض عبارة عن مجموعة من الجزر، تعتبر مراكز أمامية بالنسبة للشرق. ففيها وجدت أشجار النخيل والموز وجوز الهند والفواكه الطازجة واللحوم. وفى هذا المكان شفى البحارة من جربهم. وقد تجمع البحارة خارج السفن. وأقاموا علاقات صداقة وطيدة مع السكان الذين كانوا يسرقون أى شئ يقع تحت أيديهم، وسمى ماجلان هذه الجزر باسم لادرونس *ladrones* "جزر اللصوص" ويعرف عدد من هذه الجزر اليوم باسم جزر مارياناس *Marianas*.

وقد مكث ماجلان فى هذه الجزر، فترة طويلة كى يحصل منها على الإمدادات

اللازمة، وبعد ذلك. استأنف طريقه نحو الغرب مؤلا في الوصول السريع الى جزر ملقا. وبعد اسبوع اعتقد انه قد وصل الى هدفه. ولكن الشاطئ الذى رآه كان جزيرة من مجموعة جزر سميت بعد ذلك بالفلبين.

وكان ماجلان الأوربى الأول. الذى زار هذه الجزر، وقابل - هناك - تجارا من الصين، ومن أجزاء أخرى من الشرق الأقصى. وعلم منهم أنه فى استطاعته الوصول الى ملقا. وذلك بالأبحار مئات قليلة من الأميال جهة الجنوب. وكان انتصار ماجلان يمثل لحظة انتصار هام. فقد ادرك انه استطاع الوصول الى ملقا. ومن تلك الجزر واصل السفر متتبعا الطريق المألوف. عائدا الى أسبانيا. وهكذا أثبت ماجلان أن الأرض كروية. وذلك عن طريق الدوران من حولها، مع ان ذلك كان يمثل بالنسبة للوربيين رعبا حقيقيا.. ولكن لم يدم هذا النصر طويلا لماجلان المسكين. فبعد وصوله الى الفلبين حاول حماية جماعة من أصدقائه الوطنيين من هجوم قبيلة معادية لهم. فكان ماجلان قد قاد خمسين من بحارته خلا مستنقع، وفى أثناء ذلك وجد نفسه محاصرا بحشد كبير يقدر بالمئات من المحاربين الغاضبين. وقد واجهت المجموعة الأسبانية الصغيرة هذا الحشد، مع أن ماجلان كان معوقا بسبب عرجه. لذا تعرض لسيل منهم من حراب السكان الهمج فأردته قتيلا.

وبعد هذه الهزيمة، هاجم الوطنيون الأصدقاء الرجال البيض وذبحوا الكثير منهم. وفى ذلك الوقت. لم يكن هناك أفراد يكفون لقيادة السفن الثلاث المتبقية. لذا قام الأسبان بحرق واحدة من هذه السفن وهربوا من الفلبين فى السفينتين المتبقيتين ترينداد Trinidad، وفيكتوريا* Victoria. وبعد مرور عدد من الأسابيع كانوا

* أبحر جوان سبستيان دلكانو Juan sebastian delcano بالسفينة فيكتوريا عائدا الى أرض الوطن فى اسبانيا بعد وفاة ماجلان. وقد وصل سبستيان الى ميناء سان لوكار San Lucar (سبستيان) بإسبانيا ومعه ١٨ بحارا من الذين ظلوا على قيد الحياة فى ٧ سبتمبر ١٥٢٢ م. وكافاه الامبراطور تشارلس الخامس. ولم يحصل ماجلان على مكافأة لأنه كان قد مات قبل ذلك. وقد حفر نقش لاتينى حول الكرة الأرضية التى لفت بجاكته الحرب وكتب عليها هذه العبارة Primus Circumdediti أى تعنى انتم أول من أبحر من حولى You were first around me.

فى حالة يرثى لها . حيث احدث بهم الموت . وفى النهاية وصلوا الى ملقا . وهناك شحنا السفن بالبهارات . وكان هؤلاء البحارة تواقين لممارسة هذه الأعمال حتى أنهم خلعوا ملابسهم . وتاجروا فيها من أجل الحصول على هذه السلع الثمينة . وفى هذا الوقت . كان قد بقى من البحارة على قيد الحياة ١٠١ رجل من جملة عددهم البالغ ٢٣٤ رجلا . كانوا قد أبحروا من اسبانيا .

وفى تلك الأثناء ، واصل ٤٧ بحارا مسيرهم على ظهر السفينة فيكتوريا متجهين نحو الغرب عبر المحيط الهندى ، ومروا من حول افريقيا ، وبعد ذلك اتجهوا الى أسبانيا . وأما السفينة ترينداد فكان بها ثقب لذا تخلقت للإصلاح . وفى النهاية ، وصلت السفينة - فيكتوريا - إلى أسبانيا عام ١٥٢٢ م ، وعلى ظهرها ١٨ بحارا ، فقط من الذين ظلوا على قيد الحياة بعد ان حاصرتهم المجاعة فترة طويلة ، وبعد ان قضى الجرب على كثير من هؤلاء البحارة الأحياء الذين كانوا على ظهرها . وتعتبر السفينة فيكتوريا هى السفينة الأولى التى أبحرت حول العالم .

جزر فلوريدا

وصل كثير من المغامرين إلى شمال أمريكا خلال سنوات قلائل، بعد كشف كولبس لها، وكان من هؤلاء المستكشفين الذين زاروا مايعرف فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة الأمريكية، جندى أسباني - جدير بالثقة والتصديق - يدعى جوان بونس دى ليون Juan ponce de leon.

وكان بونس دى ليون هذا، قد أبحر مع كولبس فى رحلته الثانية الى أمريكا عام ١٤٩٣م، وخدم فى المستعمرة الاسبانية هيسبانيولا، فكان ضمن أفراد القوة التى أخضعت هذه الجزر واستعمرتها. وبعد ذلك، اكتشف بورت ريكو Puerto Rico وفتحها عام ١٥٠٩م، حيث أسس هناك ضيعة كبيرة له، كما بنى قلعة ولى نفسه حاكما عليها.

وكان سكان هيسبانيولا يموتون بسرعة بسبب عملهم فى مناجم الذهب، وبسبب نقص التغذية والعمل الشاق، وكان سادتهم يقومون باستبدالهم من حين لآخر بسكان الجزر الأخرى، ومن سكان هذه الجزر سمع الأسبان قصصا عن أرض خرافية وصفها الهنود وصفا غير حقيقى، وكان من هذه الأرض جزيرة قريبة تقع فى الشمال أسموها جزيرة بيمينى Bimini. وبعد عدة سنوات، سمع بونس دى ليون حديثا عن بيمينى، لذا فكر فى تحقيق أمجاد وثروات، ومن هنا توالى إبحار الرجال الأسبان الأول، ومن الجدير بالذكر انه سردت له قصة خيالية بواسطة امرأة هندية عجوز حيث قالت هذه المرأة يوجد فى بيمينى نافورة سحرية، تتدفق المياه منها دون توقف وعندما يشرب الناس العجائز والشيوخ مياهها، يصبحون شبابا من جديد. واستمع الفاتح الأشيب لبلاد المكسيك باهتمام بالغ، وكان بونس هذا يبلغ من العمر فى ذلك ٥٠ عاما.

وفى ربيع عام ١٥١٣م، بدأ بونس دى ليون فى الإبحار من بورتوريكو على رأس ثلاث سفن، وقد اتخذ طريقة من خلال سلسلة البهاما التى يزيد عددها على ٧٠٠ جزيرة، فهى تمثل جزرا منخفضة، أو أوتادا لتثبيت قطع صغيرة من الصخور والشعاب. ولم يستطع بونس دى ليون كشفها جميعا، كما لم يزر الجزر العديدة المتضمنة جزيرة

سان سلفادور، التي كان كولبس قد رآها أثناء قيامه برحلته الأولى التي اكتشف خلالها أرض العالم الجديد. وفي يوم الأحد، عيد الفصح الموافق ٢٧ مارس عام ١٥١٣، القى بونس دي ليون نظرتة الأولى على الساحل الذي يعرف الآن، بالولايات المتحدة. وبالقرب من هذه المنطقة التي مر على كشفها ٥٢ عاما اسست مدينة سانت أوجستين التي تعتبر أقدم مدينة لاتزال توجد في الولايات المتحدة. ولقد عرفت الأرض التي اكتشفها بونس دي ليون باسم فلوريدا، وتعنى بالاسبانية باسكوا دي فلوريز، وهو الإسم الأسباني لعيد الفصح - وهو يعنى وقتا من السنة تظهر فيه أول الزهور، وبعد ستة أيام من السفر، وجد منطقة أمينة فحط رجاله، وذهب إلى الشاطئ، ورفع العلم الملكي عليه. وطالب بملكية هذا الوطن لاسبانيا.

وبسرعة تعرف بونس دي ليون على هنود هذا الوطن الذين لم يكونوا شعبا جبانا تعوزه الحماية، بل إن هذا الشعب هو الذي تغلب بسهولة على اخضاع الهيسبانيولا، فكان رجاله محاربين أقوياء مع أنه لم يكن لدى أفراده أسلحة يبارون بها بنادق الرجال البيض، فكل ماكان لديهم يتمثل في الأقواس والحرب المسومة الأطراف. وفوق كل ذلك كانت معنوياتهم مرتفعة فكانوا مستعدين للحرب بصفة مستمرة. وقد غامر بونس دي ليون وأتباعه مرات قليلة في الذهاب إلى هذه الأرض، ومع ذلك لم يتجاسروا أبدا ولو مرة واحدة على استكشاف الداخل. وبعد ذلك عاد الأسطول إلى جهة الجنوب هابطا على طول الساحل الشرقي حتى رأس كنثيرال التي تطلق الصواريخ الفضائية منها في وقتنا الحاضر. وهذا يمثل نوع من الكشف الجديد. وفي أثناء مرور البعثة من الخليج، وحول الرأس أصطدمت بهذه الرأس.

وبعد أسابيع من الصراع في هذا المجرى الواسع، عثروا على طريقهم. الممتد على طول جزر فلوريدا. وبعد ذلك، تتبعوا الساحل الغربي، الذي قادهم الى انحناء حادة تقع تجاه الغرب. ومن بعدها عادوا الى أرض الوطن ولم يعرف بونس دي ليون. على وجه الدقة الأرض التي رآها أمى جزيرة أم لا. ولكن كل ما عرفه عنها أنها أرض شاسعة لدرجة انها أكبر من جزيرة كوبا الكبيرة، وفي نفس الوقت، اعتبر كشفه على جانب من الأهمية. فعندما عاد الى اسبانيا أخبر الملك بهذا الكشف، وتحدث عن جزيرة

فلوريدا . ولكنه لم يتحدث عن نافورة الشباب . حيث لم يكن أمامه متسع من الوقت للبحث عنها . لهذا كان قد قرر العودة للعالم الجديد بمعدات أفضل ووعده الملك بأنه فى حالة فتح فلوريدا ، فإنه سيعينه حاكما عليها .

وبعد وصول بونس دى ليون الى العالم الجديد شغل نفسه فى السنوات التالية بقمع ثورات قبيلة الكارب Carib tribe القاطنة فى جزر الهند الغربية . وفى عام ١٥٢١ وأصل بونس دى ليون مهمته الى فلوريدا مرة ثانية . وفى هذه المرة كان معه سفينتان مسلحتان تسليحا جيدا . ففيهما : ٢٠٠ من الرجال المدربين على أعمال القتال ، ٥٠ حصانا ، وهناك صمم على إنشاء مستعمرة دائمة ، ويعنى هذا بالطبع استثمارا لخطة بعثته . ولما وصل الى فلوريدا ، قاد طاقم احدى سفنه نحو الشاطئ ، ولكنه قوبل على الفور بقوة من الهنود الشرسين ، فارتد على أثر هذا اللقاء . ومعه رجاله من البيض ، رغم ارتدائهم للدروع ، وكانت قوة الهنود تكمن فى السهام الكبيرة التى استطاعوا ان يشقوا بها خوذة أو درعا .

وقام الهنود بقتل وجرح الكثير من الغزاة . وفى خلال معركة بسيطة تمكنوا من طرد الغزاة بعيدا ، وفى تلك الأثناء ، تعرض فخذ بونس دى ليون إلى طعنه قوية من سهم أحد الهنود ، وعلى الفور سقط على الشاطئ ، ولكن زملاءه قاموا بحمله ، وعادوا به إلى السفينة ، وأسوء الحظ لم يكن هناك فى تلك اللحظة طبيب من بين افراد البعثة . ولكنهم كانوا يأملون فى إيجاد طبيب فى هافانا بكوبا لذلك أبحروا على وجه السرعة الى هناك . ولكن بعد أيام قلائل من وصول بونس دى ليون الى هافانا مات متأثرا بجراحه . ولم يكن بونس دى ليون يعلم ما اكتشفه هل هو جزيرة أو قارة ، مع أن رحالة اسبانيين آخرين كانوا قد زاروا فلوريدا قبل قيام بونس دى ليون برحلته الثانية . وقد ثبت بأنها جزء من الأرض الأمريكية الرئيسية .

وفى عام ١٥١٩م ، قام الونزو الفاريز دى بندا Alonzo Alvarez De pineda بكل المغامرات الكشفية . وفى تلك الأثناء ، كان ماجلان يبحث عن مضيق يعبر من خلاله إلى المحيط الهادى . فعلى مسافة آلاف الأميال نحو الجنوب . أبحر بتدا من جزيرة جاميكا إلى فلوريدا . وهو يفكر فى هذا الهدف نفسه . وخلال تسعة شهور

جاء أسطول - المكون من اربع سفن شراعية - شاطئ خليج المكسيك، متجها مع الجانب الغربى من فلوريدا، وبعد ذلك، دار الى حيث توجد مدينه تمبيكو Tampico. ومع ذلك، فلم يجد متفذا يودى إلى بحر الجنوب لهذا عاد أسطول أدراجة. وفى طريق عودته نحو الشرق، وجد بندا وبالصدفه المحضة . "نهرأ ذا مياه عظيمة" أطلق عليها بندا اسم "ريودل اسبيريتو سانتو Rio dell Espirito Santo أى نهر الشبح المقدس. وكان هيرناندو دى سوتو Hernando de soto قد اكتشف نهر المسيسيبى، بل وجد انه هو النهر الذى كان بندا قد وصل اليه قبل ذلك بعشرين عاما من وصول دى سوتو.

فتح المكسيك وبيرو

إزدحمت السفن بالصيادين السعداء، الذين ابجروا فى أعقاب كولبس إلى العالم الجديد. فكان الكثير قد فقد حياته فى المغامرة، وكان الآخرون منهم قد عادوا إلى وطنهم وهم خاؤو الوفاض - أى بدون شئ يحملونه معهم، أوبدون ان يحملوا فى ايديهم شيئاً يذكر- ومع ذلك، فقليل منهم أصبح ثريا بسبب الذهب الذى حصلوا عليه من المناجم ومن اللؤلؤ، ومن صيد الأسماك وأثرى آخرون بسبب العمل فى الأرض (استعمار) فمن المكسيك وبيرو حصل الفاتحون على أموال ضخمة.

لقد قوبلت الأعمال اللصوصية، والظلم باحتجاج قليل فى هذه الأوقات عما هو عليه اليوم. فقد انتشر العنف والقسوة فى العالم الأوروبى "المتحضر" وإلى جانب أعمال العنف والقسوة هذه كانت هناك هجوة الشعوب الأمريكية. فقد كانت جريمة الغزو التى تسمى بالفتح، بحيث أصبح القتل الجماعى يمثل أحيانا جزءا ضروريا من الفتح، ووجد الرجال البيض مبررا للهنود لتناولهم اللحم البشريه. وقالوا ان الهنود لم يعجبوا لها حقيقيا. وفى بعض الأحيان، قال الهنود نفس الشئ عن مستعبيدهم. وكان من هذه الأدوات، الأسلحة المصنوعة من الصلب والبارود، والبنادق. وكانت هذه الأسلحة أكثر فاعلية من الأسلحة التى يمتلكها الهمج.

لقد أتى الكاهن الأسبانى بارتولومى دى لاس كاساس Bartolome de las Casas إلى أمريكا عام ١٥٠٢م، وقضى عدة سنوات فى المستعمرات الجديدة. وفوض اتباعه من الأسبان فى القيام بقتل أعداد كبيرة من الهنود. وبعد مئات السنين أتهم هذا الكاهن بالمبالغة من جانب المؤرخين، ولكن كيف يكون ذلك مبالغة علما بأن هؤلاء المؤرخين لم يكونوا هناك مع لاس كاساس الذى كتب يقول " رأيت بعينى المجردة مايزيد عن ستة آلاف طفل يموتون كل ثلاثة أو أربعة شهور.

وفى ذلك الوقت، كان الأسبانيون منهمكين فى بحثهم عن الذهب دون التفات الى لاس كاساس. فمن على قمة كوبا الغربية، رأوا ساحل الياكتان الذى يقع فقط على

مسافة تزيد قليلا عن مائة ميل عبر الكاريبان. وقد جرب المغيرون الأسبان واحدة من غزواتهم هناك. ولكن طردوا بعيدا بمعرفة هنود المايا المناوئين. وقد ذكر المشاركون الأسبان في كتابتهم أنه عند عودتهم الى كوبا شاهدوا المواطنين يرتدون الذهب. لهذا السبب نظم فلسكيز Velasquez حاكم كوبا في مرة من المرات بعثة مكونة من أربع سفن. وفي عام ١٥١٨م، بدأت هذه البعثة مهمتها الى الياكاتان Yacatan وكان برفقته في هذه الرحلة ابن أخيه المسمى جوان دى جريجالفا Juan de Grijalva وهناك، قام بمحاربة هنود المايا بشراسة، لأنهم يتعلموا أبدا كيفية استخدام الأسلحة الحديدية، فبدون ذلك المعدن. وبدون البنادق أصبح الهنود في مأزق رهيب. فكانت دروعهم الوحيدة تصنع من خيوط القطن. وكان الهنود يعلقون السهام والحراب والسيوف - التي كانت تصنع من رقائق حادة من الزجاج البركاني سهل الكسر - في الجزء المفتوح من الدرع. وفي معركة عنيفة فقدوا (أي الهنود) مئات عديدة من الرجال. وبعد ذلك ولوا مدبرين.

وفي ذلك الوقت، انتشرت أشاعة كان مفادها أن القوات الأسبانية قوية لدرجة كبيرة لهذا تركت دون أدنى مقاومة من جانب الوطنيين، وظلوا يمارسون عمليات الكشف. وبعد ذلك أبحر الأسبان بمحاذاه الساحل لمسافة قليلة من مئات الأميال. حتى وصلوا الى موقع مدينه فريكورز الحالية Veracruz (مكسيكو). وهناك، كانوا على مسافة ٤٠٠ ميل فقط من عاصمة الأزتك الكبيرة Aztec المعروفة باسم تنوشيتلان مكسيكو Tenochtitlan Mexcico city، واقتنع جريجالفا الى حد كبير بأنه على حافة أطراف إمبراطورية شاسعة أكثر ثراء من أي قطر يراه بعد ذلك في العالم الجديد. فقد رأى منازل حجرية ضخمة، ومعابد فاخرة. وعلم جريجالفا من الناس الذين تحدث معهم بأن حاكم إمبراطورية الأزتك يمتلك كميات ضخمة من الذهب الذي خزنه بعيدا في مستودعات بضائع كبيرة. وعلم جريجالفا أيضا أن الإمبراطورية كانت تأخذ ضرائب كثيرة من سكانها. حيث أن مدنا كثيرة كانت على حافة الثورة. لذا اسرع جريجالفا بالعودة كي يخبر عمه حاكم كوبا بهذه الأخبار. وعلى الفور، بدأ الحاكم فليسكيز على رأس بعثة كشفية ومسلحة تسليحا جيدا، وعندئذ،

دهش جريجالفا بل حزن لعدم اختياره لقيادة هذه البعثة، وقد تأمر فرناندوكورتية *
Hernando Cortier الجندي السياسى والبالغ من العمر ٣٤ عاما ضد
جريجالفا، وبخطة محكمة استطاع كورتية أن يؤاىب الحاكم فلسكين ضد ابن أخيه
جريجالفا.

وهكذا، فقد نجح كورتية فى غزو المكسيك. وفى فبراير عام ١٥١٩م، قام فلسكين
على رأس ١١ سفينة و ٦٠٠ رجل ليرى ماذا يمكن تحقيقه لأسبانيا - وانفسه - من هذه
الإمبراطورية الضخمة التى تقع فيما وراء الساحل.

وفى يوم الجمعة الموافق ٢٢ من شهر أبريل عام ١٥١٩م، رسى كورتية فى
المكسيك. وكان قد حذر من أن الـ ٦٠٠ رجل سيواجهون جيشا ضخما من حيث التدريب
والقوة والكثرة العددية. التى تقدر بعشرة آلاف جندي. ولكن كورتية كان على يقين من
أن بعثته الصغيرة المكونه من عدد من الغزاة كانت تحمل معها أدوات حربية ممثلة فى
البنادق والمدافع، وبذلك لايمكن لأسلحة الهنود الممثلة فى السهام والأقواس القاتلة
مواجهة هذه الأسلحة. فأسلحة الأسبان كانت تنزل الرعب فى قلوب البربر الشجعان
وقد تقدم قوة الأسبان الغازية ستة عشر حصانا. وقد دهش الهنود عند رؤيتهم للخيول
لأنه لم يكن بأمرىكا خيول فى ذلك الوقت. يمكن للأسبان الحصول عليها.

زد على ذلك فإن الهنود دهشوا. بل فزعوا عندما نصب جنود كورتية مدافعهم
استعدادا لبدء معركة هجومية ضد الهنود فى تاباسكو Tabasco. وقد شوهدت
الخيول وهى تضرب الأرض بحوافرها. كما سمع رنين عدد الحرب. ولم يكن أمام
الهنود إلا التلويح بسوفهم. واعتقد الأتكتس بأن الرجال البيض وخيولهم كانوا عبارة
عن مخلوق واحد ومع ذلك، فقد كان الموقف فى المكسيك أحسن حالا بالنسبة لفرناندو
كورتية والأسبان عما توقعه جريجالفا. ومنذ عهد بعيد، اعتقد سكان مكسيكو فى الـ

* قاد كهنة الأتكتس - فى معبد المكسيك - الضحايا البشرية على السلام المؤدية الى المذبح، فقد
قدموا قربانين الى الشمس. ولما وصل كورتية الى تنوشتلان (مدينة مكسيكو) وجد المعبد الموجود
هناك مزين بـ ١٣٦,٠٠٠ جمجمة (المؤلف)

يدعى كويتزال كوتل، الذى كان قد قدم عبر الماء من الشرق الى أرضهم وبصحبته عدد من الآلهة. وكانت وجوههم بيضاء ملتحية. وقد حكموا لمدة من الوقت. شعب المكسيك وبرهنوا على انهم يميلون الى الرأفة والشفقة والطيبة. وبعد ذلك انقلب يدعى كويتزال كوتل، الذى كان قد قدم عبر الماء من الشرق الى أرضهم وبصحبته عدد من الآلهة. وكانت وجوههم بيضاء ملتحية. وقد حكموا لمدة من الوقت. شعب المكسيك وبرهنوا على انهم يميلون الى الرأفة والشفقة والطيبة. وبعد ذلك انقلب الناس عليهم وطردوهم بعيداً. ولكن عندما رحل الآله كويتزال كوتل * quetzal coatl قال: إنه سيعود فى يوم ما ويعاقب كل الوطن بسبب أفعاله المؤذية. وقد اعتقد كل واحد فى المكسيك ابتداء من الكهنة وحتى الإمبراطور العظيم منتوزوما Mantezoma نفسه فى هذه القصة التى انتقلت اليهم من أسلافهم. ولما ظهر كورتيه وأتباعه على المسرح، تاکد الأتكيون بأن يوم العدالة قد جاء، وأن الآلهة البيض عالموا لينزلوا جام غضبهم (على الهنود) مع أن الاسبانيين جاوا من أجل النهب والسلب . وقد تمكن كورتيه فى وقت قصير من الحصول على أجزاء كبيرة من امبراطورية الأزتكس. وضمها الى جانبه. وذلك عن طريق الوعد الذى قطعه على نفسه. من أنه سيحررهم من حكم منتوزوما الطاغية. وعلى الفور قاد كورتيه الآلاف من القوات الهندية ضد العاصمة مكسيكو (تنوشتلان). وقد سار هذا الجيش الى داخل المدينة متظاهرا بالصدقة الى منتوزوما. وبعد ذلك وبخيانة وغدر، القى القبض عليه ثم اقتيد كسجين ورهينه فى وقت واحد.

وكان شعب مدينه مكسيكو فى حالة من الفوضى واليأس. وذلك يرجع الى أن حاكمهم العظيم سيدهم الغاضب المنتوزوما، قد وقع فى أيدي الأسبان الغزاة، لهذا لم

* رسمت صورة رمزية للإله كويتزال كوتل توتك Quetzal coatl toltec God. بمعرفة هندى أرتك، وقد هزم التوليتكس، بمعرفة الأرتك قبل مجئ كورتيه بـ ٢٠٠ عام. ولكن بعد ذلك اعتنق الأرتك اله نجم الصباح والكويتزال كوتل. ويقال إنه يعرف بإله نجم الصباح. وهو يتمثل فى أنه رجل أبيض طويل وذو شعر ذهبي. وكانت شارته عبارة عن شعبان ملون – شعبان لم يكن جلده ذو حراشيش – كان جلده قد صنع من ريش طائر الكويتزال. واعتقد الأزتكس بأن هذا الإله الأبيض سيعود بعد يوم واحد من عقابهم (المؤلف)

يرغب سكان مكسيكو فى رؤية زعيمهم متألماً. وفى حقيقة الأمر، ظل منتوزوما* مصراً على أن هؤلاء الرجال البيض كانوا آلهة، لذا أرسل رسائل إلى شعبه يحثه فيها بعدم شن الحرب على الرجال البيض، مع أن الأسبان كانوا يقومون بقتل الهنود بالآلاف فى معركة تلو الأخرى.

وعلى الرغم من ذلك، كان يوجد هناك رجال آخرون من بين الأزتكس، يمثلون الأمراء، وقادة الجيش الشجعان، الذين لم يخدعوا بسهولة مثل المنتوزوما، وفى الوقت المناسب تحققوا من أن هؤلاء الغزاة، لم يكونوا آلهة، جاؤا إلى بلاد الأزتكس ليؤزعوا العقاب بطريقة عادلة، بل هم فقط جاؤا ليسلبوهم حريتهم ويدمروا امبراطوريتهم. وبعد ذلك هب هؤلاء الرجال، وقادوا شعب مدينة مكسيكو ضد الأسبان، وفى الوقت نفسه، احتشدت جموع الناس المتوقعة حول القصر حيث اعتقل المنتوزوما سجيناً، وأقنع كورتيه منتوزوما بالخروج إلى السطح والتحدث إلى الناس طالباً منهم عدم الهجوم، ولكن مع ذلك، فقد فقدت مجموعة من هؤلاء الناس احترام سيدها ورجموه (منتوزوما) بالحجارة حتى سقط من فوق السطح وهو فى حالة يرثى لها. وبعد ذلك، أى فى ٣٠ من شهر يونيو عام ١٥٢٠م، أطبقت الجيوش الهندية على الأسبانيين وفى ليلة المعركة العنيفة التى سميت نوش ترست Noche Triste أى ليلة الحزن، قتل كثير من الأسبانيين الذين كانوا يحاربون وهم فى طريقهم إلى خارج المدينة، فتمكنوا من الهرب بكل صعوبة ومعهم أمتعتهم.

وفى مسافة أمتة أعاد كورتيه بناء جيشه مرة ثانية، وبعد ذلك سار مسافة أكبر إلى العاصمة، وفى هذا الوقت، فرض حصاراً حولها بل أحكم هذا الحصار بمساعدة آلاف من المتمردين الهنود. وقطع كورتيه عن العاصمة أيضاً الإمدادات لمدة ثلاثة شهور. وفى النهاية ضعف المدافعون بسبب الجوع والمذابح التى اضطرتهم إلى التسليم، وفى ١٣ أغسطس عام ١٥٢١م، حقق كورتيه النصر بعد أن أكتمل فتش

* عندما رسي كورتيه أخطأ منتوزوما فيه. واعتبره. الإله الكويتزال كوتل. ومن هذا المنطلق فقد عامل منتوزوما عدوه على أساس أنه اله، فقدم الى كورتيه الهدايا آملاً أنه يمكن رشائه كي يغادر فى سلام إمبراطوريته الغنية.. (المؤلف).

مكسيكو . وبعد ذلك أطلق على هذا القطر (مكسيكو) أسبانيا الجديدة. وعلى هذا فقد قدم إليها اسبانيون آخرون ثم أعاد كورتية بناء العاصمة الأزتكيسة. ومنذ ذلك التاريخ وما بعده، فرض كورتية * وأسلافه السيطرة على هذه الأرض الجديدة.

وبنفس الأسلوب، وبعد سنوات قليلة، سار فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizaro إلى الإمبراطورية القديمة التابعة للإنكا، الواقعة في بيرو. وفي ذات يوم، سمع بيزارو عندما كان في دارين Darien هنديا يحكى قصة إلى نانيز بلباو Nunez Balboa عن مملكة الذهب العظيمة في بيرو، والتي تقع في الجنوب، ورغب بيزارو في القيام بمثل هذا الفتح العظيم، وبعد ذلك قام بتنظيم عمليات الفتح هذه على فترتين متتاليتين، وذلك بأعداد بعثات كشفية، ولكن بعد إرسال هذه البعثات بأمت جميعها بالفشل، وفي عام ١٥٣١م، بدأ بيزارو في الإبحار نحو الجنوب فيما وراء بنما. وكان يرفقته ثلاث سفن وذلك في محاولة أخرى. وكما حدث للأزتكس في مكسيكو ، حدث للإنكا في بيرو . فقد فرق الصراع الداخلى شعب الإنكا في بيرو بل وأضعفهم. وفي هذه المرة، تمتع الأسبانيون بالقدرة والتفوق واستعمال العنف والقسوة. فكان بيزارو قد تقدم ورفقته ١٨٠ جنديا. كان من ضمنهم ٢٧ فارسا في داخل الوطن. وبسهولة حقق بيزارو انتصارات قليلة على الهنود الذين قابلوه في بدايه الأمر. وبعد ذلك اتخذ بيزارو طريقه من خلال جبل مرتفع، ثم بعد ذلك من خلال جبال الأنديز، حتى وصل الى مدينة كاجاماركا Gajamarca التي كانت موطن الامبراطور آتاهولبا Atahualpa*. وهنا وبجدارة منقطعة النظير، دخل كورتية مكسيكو، وفي الوقت نفسه، سار بيزارو الى داخل مدينه كاجاماركا. وعسكر بجيشه في الميدان الأوسط الكبير. وفي نفس الوقت لم يقيم آتاهولبا بأية محاولة لإبعاد الأسبانيين عن عاصمة

* بعد أن بدأت الحرب بـ ٧٥ يوما ، وعلى وجه التحديد في ١٣ اغسطس. دافع المقاتلون الهنود عن المدينة دفاعا عظيما لدرجة أن كورتية قتل في هذه المعركة (المؤلف).

* عند كاجاماركا. حمل آتاهولبا إلى الأسبان على كرسي ذهبي ولما رآه رهبان فالفيرد Valverd في كنيسة بيزارو حاولوا تحويله إلى الكاثوليكية ولكن امبراطور الإنكا امسك بانجيل فالفيرد وقذفه بغضب على الأرض.

ملكه، لأنه كان واثقا من تحقيق النصر عليهم. وعندئذ، أرسل بيزارو* رسالة الى أتاھولبا، يدعو فيه الى القدوم إلى المعسكر، وذلك من أجل المفاوضات. وقد قبل اناھولبا الدعوة. وفي اليوم التالي الموافق ١٦ من شهر نوفمبر عام ١٥٣٢م، حمل اناھولبا على محفة إلى معسكر بيزارو، وكان برفقته ٤٠٠٠ رجل، علاوة على حاشيته، وكهنته الكبار، وقادة جيشه، وعدد كبير من الحراس. وفي تلك الأثناء أخفى بيزارو نفسه ورجاله خلف الأسوار والأبنية التي تحيط بالميدان Plaza، وبينما كان رجال الدين الإنكيون يتحركون إلى وسط الميدان، وجدوا هناك قسيسا اسبانيا فقط، حاملا معه الإنجيل، وإلى جواره مترجم هندي، وأخبر هذا القس الأسباني اناھولبا وأتباعه عن عبادة الهم المزيفة وعليهم أن يعتنقوا ديانة الأسبان.

وعندئذ، أصبح اناھولبا ساخطا، بحيث قال: إنه يرغب في رؤية كتاب الصلاة الذي يحمله القس الأسباني، ولما تناوله أتاھولبا* من القس الأسباني قذفه على الأرض، أى قذف الإنجيل. وفي تلك الأثناء، قفز بيزارو* من مكان اختفائه وصاح قائلا: سانتياجو Santiago، سنت جيمس Saint James، كما صاح الإسبانين قائلا: "المعركة"، وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله كي يهجموا. وقد هزم الأسبانيون القادة الهنود المحاصرين والذين كانوا محتشدين معا في وسط الميدان. فكانت المدافع قد أطلقت، كما بوت طلقات البنادق. عندئذ، تفرق هؤلاء الهنود الذين لم يحاولوا أن يقاتلوا مرة ثانية، بل هربوا في زعر. ومع ذلك فقد هاجمهم فرسان الأسبان في خط مستقيم وداستهم تحت أرجلها، وضربهم الأسبان بسيفهم وألقى رجال بيزارو القبض على أتاھولبا وحملوه خارج المدينة. وفي خلال نصف ساعة انتهى كل شيء، وامتلا ميدان (البلازا) بجثث ٤٠٠٠ رجل، فضلا عن جميع

* قال فالفيرد (اجموا على الفور) وسأغفر لكم. عندئذ خرج رجال بيزارو من المخبأ، وبدأوا القتال (المؤلف).

* هنا يقف جندي أسباني في حراسة اناھولبا، الذي يجلس وهو مقيد الايدي والارجل في سجنه في انتظار توفير القدية الضخمة من الذهب.

* في عام ١٥٣١م، بدأ فرانسيسكو بيزارو ومعه ١٨٠ رجلا في الذهاب الى بيرو. وفي بداية نوفمبر من عام ١٥٣٢، سجن بيزارو الامبراطور اناھولبا الإنكى. وأصبح هو سيداً لهذا الوطن (وطن اناھولبا) (المؤلف)

قادة امبراطورية الإنكا العظيمة. وبعد ذلك كان فتح بيرو مسألة بسيطة. ولما انتهت عملية الفتح هذه بدأ الأسبان أكبر عملية سلب طول الوقت، فاجتاحت عصابات قطاع الطرق من الأسبان القطر كله. ودمرت المعابد، وقد تركت هذه الأماكن بعد أن استولت على الأواني وحلى الذهب، وعلى أثر ذلك، أصبح شعب بيرو فى حيرة من أمر نفسه. حيث أصبح بلا حكومة، كما أصبح الجيش بلا قيادة. ونظراً لهذه الظروف لم يقم هذا الشعب بأي مقاومة تذكر ضد الأسبان. وفى نوفمبر من عام ١٥٣٣م، اتخذ الأسبان من مدينة كوزكو Cuzco عاصمة لهم.

وقد أجرى بيزارو محادثة مع اتاهولبا، وكان بيزارو قد أبدى استعداداه فى اطلاق سراح الامبراطور، إذا تجمع الشعب واحضروا فدية كبيرة من الذهب يرضى بها بيزارو. وكان اتاهولبا قد وقف فى مواجهة الحجرة التى كان سجيناً بها، وكان طول هذه الحجرة ٢٢ قدماً، وعرضها ١٧ قدماً، وهى فى حجم حجرة معيشة كبيرة فى منزل فى هذه الأزمنة المعاصرة. وكان اتاهولبا قد وقف إلى اقصى مدى استطاع الوصول اليه، ورسم علامة على الحائط عند نهاية طوله من أعلى. فمن أجل أن يسترد حريته طلب من شعبه أن يملأ هذه الحجرة بالذهب حتى تلك العلامة وكان بيزارو قد وافق على هذا الشرط، وبدأ تدفق الثروة، وكان من الصعب تحديد قيمة هذه الكمية من الذهب بالتعبيرات النقدية المعاصرة، ولكن على الرغم من ذلك كان هناك تقدير معقول يمكن ان يستخدم فى تقدير الكمية التى تربو على ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني. ولم تمتلئ الحجرة بالذهب حتى علامة اتاهولبا. لأن الأسبانيين أنفسهم كانوا يقومون بنقل الذهب وتخزينه فى مكان آخر. وعندئذ، طلب اتاهولبا من بيزارو أن يحرره، وفى تلك الأثناء، اتهم بيزارو اتاهولبا بأنه أرسل رسائل سرية إلى مقاتلى الإنكا الذين كانوا معسكرين على مسافة مسيرة يومين من كاجاماركا يحثهم فيها على القيام بالثورة.

وقد اعتبر الأسبانيون اتاهولبا مذنباً طوال حياته. فعلى الفور، حكم بيزارو عليه بالحرق وهو موضوع فوق خازوق. ولكن استغاث امبراطور الإنكا، وطلب العفو ولكن اخبره بيزارو أنه إذا استطاع أن يقبل أن يعمد كمسيحى، ففى هذه الحالة فانه لن يحرق كما لن تسلم منه قطرة دم واحدة، وقد وافق اتاهولبا على أن يعمد مسيحياً، وقد

أحضر الأسبان قسا، وأجريت مراسم التنصير، وبعدها ، وعلى الفور اخرج رجال
بيزارو اتاهولبا إلى وسط الميدان العام فى كاجاماركا. فبدلا من أن يقوموا بحرقه أو
استباحة دمه، قاموا بشنقه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

بحر فيرازانو الشرقي

بينما كان كورتية يفتح مكسيكو من أجل أسبانيا * . كانت هناك سفينة أسبانية شراعية صغيرة في جزء بعيد من العالم. وكانت هذه السفينة تدعى فيكتوريا التي كانت تبحث عن أعظم هدية، (تتمثل في الطواف حول الكرة الأرضية). ففي يوم من شهر سبتمبر عام ١٥٢٢م، اتجه الشخص الوحيد الذي ظل على قيد الحياة في أسطول ماجلان إلى أرض الوطن. أي إلى ميناء أسباني. وكان هذا البحار قد نجح في تحقيق الطواف بحرا حول العالم (الكرة الأرضية). فمن المعروف أن الطريق الذي اعتقد إنه يتجه غربا إلى الهند كان مثار جدل بين الأمم، لأنه كان طريقا صعباً ومجهولاً. ومن المعروف ان السفينة فيكتوريا، استغرقت في رحلتها حول العالم عامين، أثبتت خلالها أنه من الممكن الإبحار صوب الغرب إلى جزر التوابل، وفي ذلك الوقت كان البحث جاريا من أجل إيجاد طريق أقصر وأسهل يمر عبر الأرض الأمريكية التي كانت عائقاً، فهناك يوجد مضيق في الشمال أبعد من المضيق الذي اكتشفه ماجلان واعتقد الجغرافيون أن السفن الأوروبية يمكن أن تصل إلى جزر التوابل في مائة يوم.

وكانت الدولتان اللتان تتنافسان في الريادة في هذا المجال هما دولتا أسبانيا والبرتغال، وأضيف إليها دول ثالثة (من المحتمل أن تكون هذه الدولة هي فرنسا). ولم يكن النصر الذي حققته السفينة فيكتوريا نوعاً من الأخبار التي يمكن أن تبقى في حيز السرية. لكن بعد خمسة شهور، قام الملك فرانسيس الأول ملك فرنسا بإعداد وتجهيز بعثته من أجل القيام برحلة لكشف أقصر الطرق الذي يؤدي إلى جزر الهند، واختار فرانسيس الأول قائداً لرئاسة هذه البعثة، وهو من أسرة إيطالية كبرى، كان لها

قبل قدوم الأسبان لم يعرف الهنود مطلقاً الخيول أو البنادق، فبدونهم لم تستطع أسبانيا أن تفرز المكسيك ويبرو نهايتها، وتوجد صورة للحصان في اليسار في هذه اللوحة المكسيكية الهندية التي رسمت في العشرينات من القرن ١٦، وتوضح كيف اندهش الرجال في العالم الجديد، فمن الواجب رؤية هذا المخلوق الجديد الغريب (المؤلف).

إتصالاتها بفرنسا، وكان هذا القائد ملاحا ماهرا هو جيوفاني دا فيرازانو* Giovanni de Verrazano وكان ملك فرنسا قد جهز أو أعد أربع سفن، ولكن بسبب العواصف وبعض المشاكل الأخرى، حرمت هذه المشاكل من ثلاث سفن، ولكن فى عام ١٥٢٤م أبحر فيرازانو على إحدى سفنه المتبقية، وهى السفينة التى تسمى Dauphine فى سريه تامة، من جزيرة غير مسكونة، تقع بالقرب من ماديرا. وكانت هذه السفينة تحمل على ظهرها الطاقم المكون من ٥٠ بحارا. بالإضافة الى المؤن التى تكفى لمدة ثمانية شهور. وبعد سبعة أسابيع، رأى فيرازانو الأرض الجديدة التى لم تر من قبل من جانب أى شخص قديما أو حديثاً. وقد وصفها بعد ذلك فى خطاب أرسله إلى الملك فرانسيس.

وكان فيرازانو قد رأى ساحل كارولينا الواقعة جنوب رأس الخوف Cape fear وكتب يقول "كان قئدى الوصول الى كاثى Cathay ولكنى لم أتوقع أن أجد مانعا كالأرض الجديدة، واعتقدت أنها لم تكن تخلو من بعض المضايق التى ننفذ منها إلى المحيط الشرقى. وقد أبحر فيرازانو بجوار الشاطئء صوب الجنوب لمسافة ٢٠٠ ميل، للبحث عن "مضيّق" ولكن الخوف منعه من الاقتراب من المقاطعة الأسبانية. لهذا قفل راجعا، ومع ذلك فقد ذهب الرجال على طول الشاطئ والتقوا بجمهرة من الهنود الذين أحضروا الطعام، وبعد ذلك، رسوا فى خليج ورأى فيرازانو نيرانا كبيرة مشتعلة على الشاطئ الذى اتخذه ليكون علامات للمدن الكبيرة. وجعلت الأمواج العنيفة الرسو عملا خطيرا، ولكن فى الصباح التالى تطوع بحار ليقوم بالسباحة حتى الوصول الى الشاطئ، مؤملا فى الإبحار مع الهنود وكان على ظهره حقيبه بها عقود (منظومة). وفى تلك الأثناء، كان الماء عنيقا أكثر مما توقع هذا البحار. فكان على وشك الفرق. ولكن لما قذفته الأمواج على الشاطئ وردد هناك، وهو فى حالة اعياء شديد.

* اكتشف جيوفاني دا فيرازانو الموظف لحساب الملك فرانسيس الاول ملك فرنسا ساحل امريكا الشمالية. عام ١٥٢٤م، باستخدام سفينته "الدوفين" فهو الأربى الأول الذى عرف بكشفه لخليج نيويورك ونهر هدسون (المؤلف)

جرى إليه بعض الهنود، وهم يصرخون في زعر وحملوه إلى النار. بعد أن نزعوا ملابسه، وكان البحارة الفرنسيون يتابعون هذا المشهد عن كُتب من فوق السفينة "دوفين" وكانوا متاكدين من أن زميلهم سيشوى وسيؤكل، ولكن حدث عكس ماتوقعوه. فقد قام الهنود بتصرفات غاية في الروعة كانت موضع إعجاب وتقدير من جانب زملائه. فقد تفحص الهنود جلد هذا البحار ابتداء من رأسه وحتى قدميه. ولما فاق من غيبوبته وانتعش تركوه وحال سبيله. وبعد ذلك أبحر فيرانانو في اتجاه الشمال الشرقي، بحيث مر على طول شواطئ كارولينا الخارجية.

ووصف فيرانانو الشواطئ بأنها كانت عبارة عن برازخ تقع على مسافة ميل من الجانب الآخر، ويبلغ طولها ٢٠٠ ميل، وفيما وراء هذه البرازخ، ومن على ظهر السفينة يمكن رؤية البحر الشرقي، وفي الواقع كانت هذه المنطقة هي منطقة باميلكوسونند Pamilico Sound التي تفصل الهتراس عن البحر الأعلى لكارولينا الشمالية. وأضاف فيرانانو بسرور قائلاً: "هذا هو البحر بدون شك، حيث أن حدوده تصل إلى نهايات الهند والصين، وأبحرت البعثة على طول هذه البرازخ بأمل إيجاد بعض المضائق أو أى جبل تنتهى عنده الأرض حتى تتمكن من الاختراق والوصول إلى شواطئ الصين السعيدة.

وتوغل الفرنسيون على الشاطئ بعيداً عن فرجينيا، والميرالاند، وهناك أبدى لهم الهنود عطفًا كبيرًا، ولكنهم قابلوا هذا العطف بدناءة وخسه إذ خططوا لخطف ولد صغير منهم، والسؤال هنا لماذا قاموا (الفرنسيون) بخطف ذلك الطفل؟ والجواب، ان هذا السؤال لم يفسر بعد، وبعد ذلك واصل الفرنسيون مرة ثانية اكتشاف الأرض المجاورة ديلاوير Delawere وفي تلك الاثناء رأوا هنديا قادمًا نحوهم ويده عصا مشتعلة. فمن المعروف أن النار عند الهنود ضرورية، ومن الصعب جدا اشعالها. والهندي عندما يقدمها للغريب فإن ذلك، يدل على حسن الضيافة. وأخيرا، وصلت البعثة إلى موقع مناسب جداً، حيث يلتقى النهر الكبير بالبحر. وقد القى فيرانانو بمراسيه مرة ثانية. وأرسل قارباً صغيراً من خلال قناة ضيقة تقع بين تلين. حيث كان يوجد في الداخل خليج تمر من خلاله المراكب العديدة ذهاباً وإياباً.

وكان الفرنسيون على صواب عندما اعتبروه واحداً من أجمل الموانئ في العالم، وبعد مرور قرن من الزمن، أنشأ الأوربيون في هذا المكان مدينة، وبسبب هذا الميناء اتسعت المدينة - وتطورت - وأصبحت مدينة عظيمة، وليس من الممكن أن تكون دهشة فيرازانو وبعثته الصغيرة، وهم يحملون على هذا الشاطئ المقفر هيئته - بعد أربعة قرن من الزمن - بحيث أصبحت عابرات المحيطات راسية في هذا الميناء نفسه، تحت ظلال ناطحات سحاب نيويورك، وعندما بدأ الطقس رديئاً أسرع الرجال بالعودة إلى سفينتهم، وأستأنف فيرازانو وإبحاره بجوار الساحل ورأى جزيرة البلوك Block Island ورأس الكود cape cod ووقف في الميناء الجديد (ميناء الجزيرة) وكان الوطنيون على علاقة صداقة بالبحارة، فكانوا يتوقون فضولا لمعرفة أى شئ يخص الرجل الأبيض، واستغل فيرازانو الأرض والناس، ومكث هناك أسبوعين وبعد ذلك. واصلت السفينة "نوفين" رحلتها نحو الشرق مارة باثنتين وثلاثون جزيرة تقع جميعها بعيداً عن ساحل المين Maine، وجاوزت البعثة بعد ذلك، هذه الجزر إلى منطقة صيد أسماك الكود cod، الواقعة على الشاطئ الكبير للنيوفونديلاند Newfoundland ومن هناك إتخذ فيرازانو طريقه في البحر متوجها إلى أرض الوطن. وقد وصل عابرا إلى ديبب Dieppe في فرنسا في مطلع يوليو. وقد إعتقد فيرازانو خطأً من أن باميلكو سوند هو البحر الشرقي، الذي بلا شك يحاذي الصين، وهذا الخطأ أمكن فهمه في الوقت الذي عاش فيه فيرازانو، فقد زاد فيرازانو من حيرة أوروبا فيما يختص بأمريكا، ومع ذلك كانت رحلته هذه على جانب كبير من الأهمية في نواح أخرى، فقد استطاع فيرازانو*، أن يدعى أنه اكتشف أكثر من ٢٠٠٠ ميل على طول ساحل أمريكا الشمالية. ومن المرجح أن الجغرافيين علموا منه أن المسافة بين جنوب كارولينا ونيوفونديلاند، لم تمتلئ بالبحار والجزر، مثلما كان مفروضاً. ولكن بامتداد مطرد لشاطئ

* من المحتمل ان يكون بحارة فيرازانو في فرجينيا قد التقوا بالهنود (المؤلف).

القارة، فإن المعرفة الجغرافية فى تلك الأيام لم تنتشر بسهولة من وطن لآخر. فقد حجبت فرنسا أسراراً كشفها عن أسبانيا، وأخفت أسبانيا ما اكتشفه ملاحوها عن البرتغال ، ومع ذلك فقد واصل مكتشفون آخرون البحث عن المضائق التى فشل فيرازانوفى كشفها.

ففى عام ١٥٢٥م، أبحر استيفان جوميز Este vao Gomez من نيوفوندلاند إلى فلوريدا، باحثاً عن طريق يوصل إلى جزر الهند. وذلك خدمة لتشارلس الخامس Charles V الأسباني، وحتى عام ١٥٣٦م كان سبستيان كابوت لم يزل يعرف ما إذا كانت هى قارة واحدة أو أكثر، تمتد من نهر المسيسبى وحتى نيوفوندلاند. وهكذا فلم تبرهن رحلة فيرازانو على عدم وجود طريق مائى يمر من العالم الجديد الى جزر الهند. مع أنه أبحر على طول الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية ومن المحتمل أن يكون هو الأوربى الأول الذى اكتشف خليج نيويورك.

عبور الأرض لأول مرة

عندما تحدث الأسبانيون عن كشف ثروة طائلة مثل الثروة التي عثر عليها كورتى حديثا بالصدفة في مكسيكو*، فهم غالبا ما يذكرون الأرض المجهولة، التي أسماها بونس دي ليون Ponce de leon فلوريدا. وكان بانفيلودى نارفيز Panfilo de Narvaez من بين هؤلاء الذين استمعوا الى الكلام المستمر عن الذهب، ومنذ وقت مبكر. كان هذا الرجل قد خدم كضابط في فتح كوبا، وبعد ذلك الوقت عاد الى أسبانيا، وكان قد قارب الخمسين من العمر، ونذكر بسالته بفخر كمحارب هندي رغبت في قهر تلك الأرض الواقعة الى الشمال من مكسيكو. ولكنه حذر من أن ذلك لم يكن عملا سهلا يمكن القيام به، لأن الهنود كانوا من قاذفي السهام القاتلة ومع ذلك نجده يبتسم فقط ويقول "أن الأقواس والسهام"، لم تكن بنادق.

وفي عام ١٥٢٨م، قاد نارفيز أسطولا، وكان على ظهره قوة مكونة من ٤٠٠ رجل، واتجه الى فلوريدا، ولكن إنتهت هذه المغامرة بكارثة تامة، فبعد أن وصل الى الشاطئ الواقع في الجانب الغربي من فلوريدا، أى بالقرب من موقع تامبا Tampa فقدت نارفيز سفته. وبعد ذلك، سار مسافة طويلة في الداخل الى الشمال والغرب، ومع ذلك فقد فشل أيضا في الحصول على الذهب، الذي كان قد وجده في مكسيكو. واجتاز الرجال في هذه المناطق القفرة مصاعب لا يمكن تصديقها، وبعد شهر من الرحلة تناقص عدد أفراد البعثة إلى ٢٤٠ شخصا، بسبب المجاعة والمرض والهجمات

* من المحتمل أن يكون أول رجل أبيض رأى الجاموسة في سهول أمريكا الشمالية هو كابزا دي فاكا Cabeza de Vaca وقد عرف الأوربيون الآخرون هذا الحيوان الضخم الأشعث الشعر من صور تلك الصور التي رسمت عام ١٥٥٨م.

* وجد سيفان هسغان بمقايض في تكساس. وكانا يستخدمان بمعرفة الأسبان ووجد على مقابضهما كتابات تقول "لاتسحبني دون سبب، لاتقمدي دون تكريم".

كان الركاب الصلب جزء من الدرع الذي يرتديه الفارس الأسباني (المؤلف).

الهندية المعادية. وقد كتب أحد الأشخاص في هذا الصدد يقول "لم تكن أحسن الدروع الى كانت لدينا بذى فائدة، فقد اخترقت سهام الهنود كثيرا من السترات المدرعة، وقد أقسم البعض الآخر من رجالنا إنه قد رأى سهما واحدا قد اخترق شجرتين صغيرتين من أشجار البلوط ، التي تنمو مجاورة بعضها البعض، وكان كل منها فى سمك رجل لرجل، ويضيف فى قوله إنه نفسه. قد رأى واحدا من هذه السهام يفوق مسافة ست بوصات فى جذع شجرة الجوز.

وفى هذه الأثناء، كانت بنية الهنود مثيرة للدهشة، فكانوا نحفاء ، أقوياء ورشقاء، وكانت أقواسهم فى سمك ذراع الرجل. بحيث يستطيعون بها إصابة الهدف بدقة، فلم يخطئوا الهدف قط حتى من على مسافة ٢٠٠ خطوة. وأخيرا ، وفى محاولة يائسة، للعودة الى المدينة ، بنى الأسبانيون خمسة مراكب من المواد التي استطاعوا الحصول عليها، وكانت الخطة تتمثل فى المسير بمحاذاة الساحل اى حول الخليج هابطين الى بانكو Panuco ومكسيكو، وكان هذا يعنى التجديف فى مراكب مكشوفة، وفى مياه الخليج العنيفة، ولمسافة مئات الأميال و كان كل هذا يعرض المراكب الى مواجهة النكبات الواحدة تلو الأخرى وفى النهاية، رست جماعة نارفيز جميعها فى فلوريدا. وكان قد ظل من أفرادها على قيد الحياة أربعة رجال فقط، وكان واحد من هؤلاء نبيل أسباني هو الفارانانيز كابزا* Alvar Nunez Cabeza، الذى كان يشغل منصب أمين صندوق البعثة، فالذى حدث بالنسبة له فى الثمانى سنوات التالية، إنه كان من أعظم المغامرين المدهشين فى كل قصة أمريكا وكان على ظهر كل مركب من المراكب الخمسة ، ما بين ٤٠ ، ٥٠ رجلاً، وقد سارت هذه المراكب بجوار الساحل فى اتجاه الغرب حتى مسافة بعيدة إلى مصب نهر ريو دل اسبيريتو سانتو Rio del Espiritu Santo أو نهر المسيسيبي، وهناك، تفرقوا بسبب هبوب عاصفة أدت الى ارتطام ثلاثة منها بالأرض، وفقد جميع من عليها، ومع ذلك فقد جدد الرجال

* من المحتمل أن الأسبان، الذين كانوا بصحبة كابزا. كانوا مرتدين سترات مجهزة بسيف وآلة وخوذة (المؤلف).

الذين كانوا فى مركب كابزا حتى القوا بمراسيهم على شاطئ جزيرة بالقرب من موقع جالفستون Galveston فى تكساس. وهناك ألحقوا بالأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة. والذين كانوا على ظهر المركب الخامس التى تحطمت أيضا، وفى هذه المناطق عاش الأسبان على الأصداف السمكية، وجنود النباتات المائية التى كان يقدمها لهم اصداقائهم من الهنود، ويحلول فصل الربيع كان عدد الذين ظلوا على قيد الحياة ١٥ رجلا.

واعتقد الهنود بأن الأسبان، كانوا سحرة أو نوعا من أنواع الآلهة، وأنه فى إمكانهم معالجة المرض. وكتب كابزا دى فاكا يقول "رغب هؤلاء الهنود فى أن يجعلونا أطباء بدون اختبارات أو شهادات. وحاولوا أن يعالجوا أنفسهم بتنفس واحد إلى الآخر، ومع هذا التنفس بسط الأيدي ، وكانوا يأملون فى ذلك جعل أنفسهم فى حالة جيدة، أو كانوا يأملون فى الشفاء. وطلبوا منا أن نفعل هذا لهم، فضحكنا وقلنا أن هذا غباء، لأننا لم نعرف شيئا عن فن الشفاء، ولكنهم اصبروا ومنعوا الطعام عنا، حتى فعلنا ماطلبوا منا، وهكذا أصبح كابزا دى فاكا ورفاقه رجال أطباء للهنود وقد حاولوا بما يعرفونه من الطب وبالأيمان الكامل للوطنيين أن يحققوا نتائج طبية، وبعد ذلك انفصل الأربعة أشخاص عن بعضهم، وتجول كابزا بمفرده فى مساحات واسعة فى جنوب غرب أمريكا، منتقلا من قبيلة هندية إلى أخرى، وصادقهم بطريقة ودية، بحيث بكت قبائل كثيرة عندما تركها.

وظل كابزا يتحرك فى اتجاه الغرب، ومقلا فى أنه فى يوم ما سيصل الى البحر. وفى غرب نهر سابين The sabine R الواقع فى تكساس، التقى كابزا مرة ثانية بالثلاثة الذين ظلوا على قيد الحياة، والتابعين لجماعة نافيز. وكان أحدهم عبدا زنجيا مراكشيا يدعى استيبانكو Estebanco ، وقد تجول الأربعة معا فعبروا تكساس حيث شاهدوا الجاموسة البرية، واندھشوا لرؤيتها ، وكانوا هم أول من رأى قرىتين من قرى الهنود الحمر، هما قرية هوبى Hopi وقرية زونى Zuni الواقعتين فى مكسيكو الجديدة، وفى الأريزونا. وعندما كانوا على مسافة مائة ميل من خليج كاليفورنيا، لاحظوا ان واحدا من الهنود الذين التقوا بهم كانت تتدلى حول رقبتة حلية،

كانت عبارة عن (ابزيم)، لحزام سيفه، وعند رؤيتها اندهش كابزا دى فاكا لدرجة انه لم يستطع الكلام، فكانت هذه العروة تعنى شيئا واحدا - الأسبانيين - وفى النهاية، وبعد كل هذه المتاعب التى تحملها كابزا لمدة سبع سنوات - والتى كان من الواضح إنه تجوال لانهاية له - قطع كابزا خلالها أكثر من ثلثى المسافة عبر الولايات المتحدة ، وهامى علامة على وجود مواطنيه

وقد علم الرجال الأربعة أن شاطئ البحر يقع نحو الجنوب، فسارعوا بالمسير نحو هذا الإتجاه، ومرة ثانية انفصلوا، وعندئذ، جاهد كابزادى فاكاواستتيانكو معا. وبعد ذلك بعدة أيام، توقف أربعة رجال من المستعمرة الأسبانية (كلياكان) Culiacan الواقعة بالقرب من خليج كاليفورنيا فى الطريق، وبدأت عليهما الدهشة، إذ ظهر أمامهما، وفى صحبة مجموعة من الهنود رجل أبيض يتحدث الأسبانية، وزنجى وكأن ظهورهما جاء فجأة، وبعد ذلك أعلن كابزا من يكون، فأعلن هذا الشخص عن نفسه. وقد عانق الأسبان كابزا دى فاكا الذى كان قد فقد الأمل من مدة طويلة فى رؤية وطنه مرة ثانية، وقد بكى من الفرح وواصل المسير حتى كوليكان. Culiacan. ومن هناك واصل السفر حتى مدينة مكسيكو، وقد كشفت اسفار كابزادى فاكا إلى راسمى الخرائط ولأول مرة بأن هناك قطراً فسيحاً يقع إلى الشمال من مكسيكو، بل وأكثر اتساعا عما أدركه أى إنسان، وقد حكى عن المدن والقرى الهندية التى رآها فى الوديان، والتى أرسل آخرون إليها حيث اتجهوا نحو الشمال من مدينة مكسيكو وذلك لجمع الذهب.

مدن الذهب السبع

وعندما عرفت قصة كابزا دى فاكا فى مكسيكو وأسبانيا، وأصبح للرقم سبعة معنى سحريا، فقد أعاد الأسبانيون الى الذاكرة أسطورة قديمة عن هذا العدد وقد زاد انفعالهم به، كما لو كانت هذه حقيقة عظيمة قد تكشفت لهم. ولكنها كانت قصة قديمة تقول : عبر سكان من شمال افريقيا مضيق جبل طارق، واجتاحوا البرتغال وأسبانيا. وفى تلك الأثناء، هرب سبعة أساقفة برتغاليون أمام الغزاة، وذهبوا الى مدينة أوبورتو Operto، وهناك ، صنعوا الى جزيرة كبيرة افترض لها أن تتحرك عبر المحيط الأطلسي ، سميت هذه الجزيرة باسم انتليا Antilia. وعلى هذه الجزيرة الغنية – لدرجة تفوق الخيال – أسس كل أسقف مدينة، وهكذا فإن الأسطورة ذهبت، وكل مدينة من المدن السبع قد تطورت الى مدن مزدهرة، وفى مكسيكو أخبر عبد هندی عن قصة تحوى أسطورة السبعة الأساقفة، فقد قال والده الهندی، لقد ذهب مرة فى رحلة طويلة الى الشمال، وبعد أربعين يوما من السفر، وصل الى قطر حيث وجد هناك سبع مدن كبيرة جميعها غنية بالذهب والفضة. وقد عاد الى وطنه، وهو يحمل حملا ثقيلا من الثروة.

وفى تلك الأثناء، وضع الأسبانيون هاتين القصتين معا. فلم تكن المدن السبع الخاصة بالأساقفة واقعة على جزيرة ، ولكن كانت فى مكان ما على الأرض فى شمال مكسيكو، وقد رغب الكثير من المغامرين فى الذهاب للبحث عنها، وقبل أن يرسل فاتح على رأس جيش كبير طلب الجنرال انتونيودى ماندوزا، من أحد الرهبان الفرنسيين سكان - وهو أيطالى الجنسية - ويعمل فى خدمة أسبانيا، ويدعى فراى ماركوس دى نيزا Fray Marcos ed Niza أن يتولى إرشاد البعثة.

وفى عام ١٥٣٩ بدأ مهمته فى كوليكان، فقد ذهب فراى ماركوس فى اتجاه الشمال الى وادى نهر سونورا Sonora R. الواقع فى الركن الشمالى الغربى من مكسيكو، وعندئذ، عبر الأريزونا التى نعرفها اليوم بهذا الاسم. وعلى طول الطريق علم فراى من الهنود، إنه يوجد فى الواقع سبع مدن كانت توجد فى قطر ناء يسمى كيبولا

Cibola، وقد بنيت منازلها من الحجر، وكان البعض منها يصل ارتفاعه ما بين ٤. ٥ طوابق مداخلها واطارات شبابيكها بالفيروز بدرجة كبيرة، وكان أيضا قد أخبر عن كيبولا Cibola بأنها تقع فى الشمال على مسيرة ثلاثين يوما. ويوصل هذا الطريق إلى مكسيكو الجديدة. وعندما كان فرأى على مسافة أميال قليلة من سييولا تسلك تلاً وألقى بنظره عبر التلال، وكتب فرأى ماركوس يقول "رأيت على خط الأفق القائم، ومن خلال الزرقة والشمس المشرقة مايشبه مدينة نييلة، وأخيرا، رأى المدينة رقم (١) من المدن السبع البعيدة" فالمدينة من المكان الذى رأيتها منه تبدو ممتازة" وأضاف يقول "بالتأكيد فإن هذه المدينة هى أجمل مدينة رأيتها فى كل هذه الأجزاء، فالمنازل بنيت من الأحجار، بالإضافة الى إننى أقر بأنها هى أكبر من مدينة مكسيكو، ولكن فرأى لم يحكم حكما جيدا، فقد خدعته المسافة وتخيله الملئ بالشوق. وفى الواقع، فإن الذى رآه هو قرية زيونس Zunis وهى إحدى قرى الهنود الكبيرة، والتي تقع على منحدر، وبنيت حوائطها من الطوب النى، أو من الطين المحروق فى الشمس، وثبتت معا بأسمنت من الرماد، ووجد فى داخل هذه القرية مائتان من الأبنية البدائية، وهذه الأبنية تمثل محل سكن لنحو ألفين من الناس. وقد انتشر تقرير فرأى ماركوس فى مكسيكو مثل الإعصار، ومرة ثانية، بدأ الأسبانيون يحلمون بالذهب والمجد، واعتقد الحاكم مندوزا Mendoza العاقل القوي إنه سيتوغل فى الداخل كى يصل الى مكسيكو أخرى وبيرى أخرى وربما أكثر.

وقد قرر أن يرسل بعثة على وجه السرعة بقدر الإمكان، واختار لقيادتها واحدا من أعظم الرجال فى حكومته، وهو نبيل يرعى فرانسيسكو فاسيكز دى كورونادو Francisco Vasquez de Coronado وفى احتفال مقعم بالحيوية، قاد كورونادو عام ١٥٤٠م بعثة الى مدينة مكسيكو، التى كانت مسلحة تسليحا جيدا، بل ومجهزة تجهيزا كبيرا، فكانت هذه البعثة تضم ٢٢٥ رجلا، كانوا يمتطون الخيول، وكانت غالبيتهم من الشباب الذين يحملون الرماح الطويلة، والمزينة بالحرير الناعم، نو اللون الأزرق البراق والأحمر الذهبى ، وكان درع كل منهم مصقولا بحيث يبرق فى الشمس وقد لصقت شارات على خوذة الفرسان، الذين كان بصحبته ١٠٠٠ هندي

يقودون أمامهم قطعانا من الماشية والخنازير، وذلك لاستخدام لحومها فى الطعام. وكان الجميع قد اتخذوا طريقهم الى المستوطنه الأسبانية التى تسمى كيوليكان Culiacan وقبل أن يكملوا المرحلة الأولى من الرحلة بدأ الشباب يتذمرون من متاعب السفر فى هذا القطر، ويمرور الأسابيع أصبحت ملابسهم الجميلة مبقعة ومتربة، وقد انهكت الدروع أصحابها بسبب الطقس الذى بدا دافئا، وبعد شهرين من مغادرتهم لمدينة مكسيكو، وصلوا الى كيوليكان، وهناك قرر كورونادو أن يأخذ جزءا فقط من جيشه ويتقدم به إلى الأمام، تاركا من خلفه القوة المتبقية، ومعها تعليمات بأن تتبعه فى خلال أسابيع قليلة، فكان قد بدأ رحلته على رأس خمسين فارسا وعدد من جند المشاة، وواصل كورونادو المسير صوب الشمال، وعبر وبعبته مايعرف الآن بحدود الولايات المتحدة، ووصل الى أرض صحراوية تقع فى أريزونا، وعندئذ، وصلت البعثة الى قرية هندية، تقع بالقرب من مدينة جالوب الحديثة المعروفة باسم نيومكسيكو، وسار الجميع فى تلك الوقت أياما قليلة ابتداء من المدينة الأولى الكبيرة، والتى تقع فى مقاطعة كييولا الخرافية. وفى الواقع هى قرية زيونس الهندية التى شاهدها فرأى ماركوس من على قمة تل يقع بعيدا عنها.

وتوقف الجيش الصغير لمدة أيام قليلة أيضا للراحة، جامعا أثنائها الطعام الذى كان مخزنا فى القرية، وعرف الهنود فى تلك الأثناء كل شئ جيد عن القوة المخيفة للبنادق وللأقواس والنشاب. ومع ذلك فإن رئيس القرية وقف بشجاعة مصحوبة باليأس أمام جماعة الغزاة البيض، ومعه عصا رسم بها خطأ على الأرض. وقد حذر وى سوتو بعدم التقدم خطوة واحدة فيما وراء ذلك الخط، ولكن بغرور قام أحد الأسبان بمهمز حصانه ليتقدم فى اتجاه الخط المنزوع عبوره، ولكن الحصان تقهقر الى الخلف. وبدا وكأن لديه إحساسا أكثر من راكبه، وعندئذ أصابه سهم فأرداه قتيلا، وفى نفس الوقت أصاب سهم آخر جندياً أسبانياً، لذلك قام الأسبانيون بمهاجمة الهنود الآخرين، وانتهى كل شئ بعد دقائق قليلة، ولم يكسب الرجال البيض فقط المناوشة؟ بما فيها من إيجابيات، بل شنتوا كل رجل وامرأة وطفل فى القرية.

ومع ذلك فقد حارب الهنود، حتى عندما عرفوا إنه لم يكن لديهم فرصة لتحقيق

النصر، فقد أصطادوا حيات الأحراش ووضعوها فى أقفاص خشبية، وبعد ذلك طعن الهنود هذه الأقفاص بسهامهم، فأنزعجوا بذلك الثعابين التى تقوم بعض رؤوس السهام فتلوئها بالسم، ثم يترك الهنود السم يجف على سهامهم، بعد ذلك أطلقوا هذه السهام على الأسبانيين. وفى النهاية، عاد كورونادو ورجاله الى المكان الذى كان فرأى ماركوس قد وصفه بأنه مدينة كبيرة، تقع فى كيبولا ، فما كان هذا الإخيبة أمل مدمرة بالنسبة لهم، فبدلاً من أن يجدوا ابنيه جميلة طائلة كالتى وجدوها فى مكسيكو نفسها، وجدوا فقط قرية هندية مسورة بالطين، وكان كورونادو متألماً وغاضباً، كما كان رجال جيشه من الشباب ثائرين على فرأى ماركوس، حيث أن هذا الراهب قرر إنه ليس من الأمان أن يبقى معهم، واختفى بهدوء ثم عاد بعد ذلك.

وبقى كورونادو فى هذه القرية الهندية، ينتظر الجراء الرئيسى من بقية جيشه القادم من كيبوليكان. وفى الوقت نفسه، أرسل الرجال فى جماعات صغيرة ليكتشفوا هذا القطر. فماذا كان عن استكشاف كورونادو؟ لقد علم أن هذا القطر لم يكن مشجعاً، فقد أرسل مجموعة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، وكل ماحققته هذه المجموعات الكشفية أنها شاهدت كثيراً من القرى الهندية، بالإضافة الى مشاهدتها للفخار والخزف والقماش المزركش، ولم تحقق هذه البعثات أى شئ يستحق الذكر للإسبان طوال هذه الرحلة، فلم توجد مدن ولاذهب، ولامجوهرات ولافضة.

ومع ذلك فلم يتخل كورونادو عن مهمته. فعندما وصل القسم الرئيسى من جيشه إلى القرية الهندية ، أخبر ضباطه ان يحتفظوا بها، بينما بدأ هو رحلته مع جماعة أخرى من المستكشفين، فاتحه نحو الشرق والجنوب، وتجول أياها كثيرة فيما يعرف فى عصرنا بسهول تكساس، وقد واصل كورونادو بحثه بإصرار يوماً بعد يوم، ولكن الأرض كانت خيالية وشاسعة، وكلما توغل كلما أصبح العمل ميئوس منه أكثر، وكان الرجال قد فقدوا الأمل، ولولا عناد كورونادو نفسه ، لكان فى إمكانه العودة ، ولكن كان هندى قد حضر مع الجيش القادم من كيبولا، وأخبره بقصص جديدة ومدهشة عن وجود ثروات كبيرة أمامه، وقد أطلق الأسبانيون على هذا الهندى "التركى" لأنه كان يرتدى غطاء على رأسه يشبه العمامة الحمراء، وقال هذا الهندى أن المدن السبع تقع فى وطن قومه، وأن

هذا الوطن يسمى كويڤيرا Quivira. وكان يقع على مسافة بعيدة ، ويحتاج الى مسيرة أسابيع كثيرة. وكان حاكم الكويڤيرا هذا ، يغفو تحت شجرة بعد الظهر، وكان يعلق فى هذه الشجرة مئات الأجراس الذهبية الصغيرة تعمل على تهدئة لينام لأنها تحدث رنيناً يندمج مع النسيم. وقال هذا التركى ان عامة الناس فى كويڤيرا لديهم كميات من الذهب، لهذا فهم يأكلون فى أوعية ذهبية، ويشربون فى قنور ذهبية أيضا. وبذلك تكون أمال كورونادو قد انتعشت ، عندما يستمع الى هذه القصص المدهشة ، لذلك قرر أن يدع التركى يقوده الى الكويڤيرا. وفى عام ١٥٤١م سار كورونادو عدة أسابيع وبرفقته هذا التركى، فمرا من خلال برارى عشبية واسعة وعبرا مجارى مائية لاتحصى، كما مرا من خلال قرى هندية متجهين نحو الشمال والشرق، وتعرف وسط هذه المنطقة فى وقتنا الحاضر بالولايات المتحدة.

ولم ير الأسبان فى أى مكان ما يحقق حلمهم، ولم يروا أيضا أى اشارة تدل على ذلك، وأخيرا وقفوا وسألوا المواطنين عن مكان كويڤيرا. وعرفوا أنها تقع على مسافة ٤٠ يوما من المسير نحو الشمال، وكان كورونادو، قد اختار ٣٠ من أحسن رجاله وواصل بهم السفر الى كويڤيرا، وبهذه المجموعة الصغيرة استأنف الرحلة، وفى تلك الأثناء، شك فى أن التركى كان قد كذب عليه، ومرة ثانية أخذ، كورونادو معه التركى، ولكن فى هذه المرة كان التركى سجيناً، وفى النهاية ، وبعد عبور أوكلاهوما متجها الى كنساس، واصل المسير نحو الشرق، فوصل الأسبانيون الى المكان الذى أسماه الهنود كويڤيرا. وفى الوقت الحاضر لايعرف أى شخص موقعها على وجه التحديد. ويؤكد ذلك شيئا واحدا يعنى أنه لم يكن للكويڤيرا وجود، فكانت عبارة عن بقعة فى سهول كثيفة تعوى الذئاب فيها حول الأكواخ المتناثرة والمسقوفة بالقش. ووقفت البعثة فى هذا المكان القحل الذى تهب عليه الرياح من فوق انحناء خط الأفق المكشوف الواقع فى وسط أمريكا. وبعد ان سارت البعثة مئات كثيرة من الأميال، عرف كورونادو ورجاله فى النهاية، ماذا كان ينبغي عليهم أن يعرفوه قبل ذلك بشهور كثيرة إنهم خدعوا. وفى النهاية عرف كورونادو أن التركى كذب عليهم منذ البداية، وقد رغب شعب التركى من الهنود الحمر فى تدميرهم هؤلاء الغزاة البيض الذين سلبوهم طعامهم، وقتلوا الكثير

منهم، ولقد فسر التركي هذا بقوله إنه وأشقائه من رجال القبائل لم يكن يحدهم الأمل في طرد الرجال البيض خارج وطنهم عن طريق محاربتهم، لذلك لجأوا الى فكرة استغلال جشع الأسبانيين في الذهب، ومن أجل ذلك قادوهم مسافات طويلة في رحلة شاقة، حتى ضعفت خيولهم، وتعرضوا في وسط هذه السهول القاحلة للجوع، وعلى الفور، صدرت الأوامر من كورونادو الى إثنين من الأسبان بسحب التركي بعيدا بعد أن يلغا حبلًا حول عنقه، ويقوما بخنقه حتى الموت، ولكن هذا لم يرض الأسبان، ومع ذلك فلم يغضب منهم الا قليل، وفي عام ١٥٤٢م، عاد كورونادو، ومعه ١٠٠ من رجاله الى مقره في مكسيكو، وكان محطما، بل خاوي الوفاض بعد رحلة دامت أكثر من عامين قضاهما في البحث عن الذهب في امريكا، بينما ترك بعضا من رجاله ينتشرون بحيث عادوا من طرق متفرقة، وانتهت بذلك واحدة من أطول المسيرات في التاريخ قبلت المسافة من مدينه مكسيكو أكثر من ٣٠٠٠ ميل في داخل امريكا.

الطريق إلى جزر الهند

عندما عاد كابزا دى فاكا Cabeza de Vaca الى وطنه أسبانيا، تلقى دعوة لزيارة هيرناندو دى سوتو، الذى خدم تحت قيادة بيزارو فى بيرو، وهو الذى كان واحدا من أغنى الرجال فى أسبانيا، وذلك بسبب العائدات التى حصل عليها من تلك المغامرات. فكان غنيا لدرجة أن الملك الأسبان كان فى الواقع يقترض منه المال. وكان لدى دى سوتو سبب خاص فى الرغبة فى التحدث مع كابزا دى فاكا، وقبل ثلاثة شهور على وجه التحديد، حصل دى سوتو من الملك على حق امتياز يخول له اكتشاف مساحة ضخمة من أرض أمريكا الشمالية التى كانت تسمى فى ذلك الوقت فلوريدا، فكانت تشتمل على كل الجزء الشرقى الذى يعرف فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة. وكان عليه أن يؤسس هناك مستعمرة خاصة به، وسأل دى سوتو ، كابزا دى فاكا، سؤالا محددا عن فلوريدا، وكان رد دى سوتو قد شرح لكابزا بأنه خطط لإرسال بعثة كبيرة، ودعاه للذهاب معه ، ولكن كابزا رفض هذا المطلب بأدب.

وفى تلك الأثناء، شعر دى سوتو بكل تأكيد بأن ضيفه كابزا كان متحفزا، ومن المؤكد إنه كان لديه خطط خاصة تتعلق بفلوريدا. ومن المحتمل جدا ، ان قصة المدن السبع كانت حقيقة واقعة. حيث تقول الأسطورة القديمة بأن المدن السبع كانت فى مكان ما على ساحل جزيرة فى البحر أو فى مضيق أو على شواطئ نهر كبير، يربط خليج المكسيك بالمحيط الهادى. واعتقد دى سوتو أنه سيجد فى فلوريدا، وفى مكان ما هذا الممر المائى ، وإنه سيكتشف أرضا أخرى على جانب من الثراء شأنه فى ذلك شأن أرض الإنكا والإزتكس.

وكان دى سوتو متاكدا من هذا لدرجة إنه كان لديه الرغبة فى المراهنة بأمواله من أجلها. وكان ملك أسبانيا لديه الرغبة التامة فى أن يدعمه يفعل ذلك، وقضى دى سوتو عامين من أجل الحصول على سفنه اللازمة لذلك. وقد تمكن دى سوتو فى نهاية الامر من إعداد بعثة وتجهيزها تجهيزا جيدا، بحيث بلغ عدد أفرادها ٦٠٠ رجل، كانت غالبيتهم من نبلاء قشتالة ومن نوى الرتب العالية، وقد أعد من بينهم جيشا مدريا، لذا

كان هذا مشروعاً مكلفاً، فقد احتاج هذا المشروع الى تسع سفن، وكمية من الأسلحة الفعالة، ومئات من الخيول، وقطيع من كلاب الصيد غير المربوطة كى يهاجم بها الهنود، فضلاً عن قطيع من الماشية والخنازير ومخزون ضخ من الأغذية، وقد زودت البعثة بكل ما يلزمها. وقد كرس هيرناندى سوتو كل أملة فى إنجاح هذه البعثة، وقد أخذ بعض الضباط معهم زوجاتهم وأطفالهم وتركوهم بعد ذلك فى هافانا بكوبا، وهى الميناء الأول، كما كان يسمى فى ذلك الوقت. وفى نهاية مايو ١٥٣٩م بدأ الجيش فى التقدم على طول الساحل الشرقى من شبه جزيرة فلوريدا. وعندئذ بدأ دى سوتو بحثه على الفور، ولدة الشهر الستة التالية تمكن دى سوتو من فحص الجزء الغربى من القطر الذى يعرف فى وقتنا الحاضر بولاية فلوريدا، فبحث عن متاجم الذهب وعن المدن وعن الممرات المائية، ومع ذلك فلم يجد دى سوتو شيئاً يذكر، وقام هنود فلوريدا بمحاربته ببأس كما كانوا يفعلون فى الماضى كى يطردوا الغزاة البيض بعيداً، ولكن دى سوتو كان أعنف من هؤلاء الذين جاؤا من قبله، فقد قام بمهاجمة الوطنيين بلا رحمة، وقال فى ذلك الوقت شاهد عيان أسبانى يدعى أوفيدو Ovidio ذلك الذى كان مقرباً من دى سوتو مانصه: "إن دى سوتو كان مغرماً برياضة قتل الهنود، فلم يتردد فى المخاطرة بحياته أو حياة رجاله. فبينما كانوا يحاربون وهم فى طريقهم من مدينة هندية إلى أخرى، حرق دى سوتو الكثير من الهنود فى أثناء الطريق. وكانوا يتركون جثثهم لمجموعات الذئاب. ونتيجة لذلك فقد فقدت أعداد كثيرة من الهنود لما لاقوه من جانب الأسبان. وكان دى سوتو قد جرح جرحاً سيئاً فى أثناء مناوشتين، كانتا قد وقعتا، وفى كل مكان كانت النتيجة واحدة، فلم يستطع الهنود مجابهة البنادق والأقواس والنشاب والأسلحة الصليبية، وكلاب الصيد وفرسان الحرب.

ولدة أربع سنوات، فقد مزق الجوع بشراسة بعثة النبلاء فى أثناء بحثها عن الذهب الذى كان يمثل غاية حلمهم، فكانوا يبحثون عنه فى الغابات والمستنقعات ومناطق قصب السكر، وفى التلال وقاع الأنهار، وفى المناطق البرية المتراصة الاطراف. ومع ذلك فقد ضاع هذا البحث سدى. وقد غطى كشفهم مساحة شاسعة مجهولة فى أمريكا الشمالية ابتداء من فلوريدا، وحتى جورجيا، وجنوب وشمال كارولينا مارا

بالبلاشين والتنس والألاباما والميسيسبي، كما غطى منطقة فى اتجاه الغرب عبر نهر الميسيسبي، وحتى أركانساس وإوكلاهوما شمالا بجذاء نهر الميسيسبي، الذى لم يكن معروفا على وجه الدقة، ولكن من المحتمل إنه قطع مسافة تقدر بـ ٢٠٠ ميل فى منطقة الميسورى، وفى صيف عام ١٥٤١م، ذكر المرشد الهندى الذى كان ضمن جيش كورونادو إنه لم يتبق أمام البعثة سوى مسيرة عدة أيام قليلة، وقد سمع كورونادو عن جماعته، وأرسل رسالة اليها، ولكن المرشد الهندى، فشل فى تحديد موقع جيش دى سوتو، وكان دى سوتو هذا . ورجاله عندما يذهبون فى طريقهم يتركون من خلفهم البؤس والمجاعة والموت، وفى مدينة تقع بالقرب من موبيل الحديثة فى ألاباما، حاول رئيس هندى أن يقلب المنضدة فوق رأس دى سوتو، فكان هذا الهندى قد دعا دى سوتو كى يجلس معه فى إحدى منازل المدينة المسورة وذلك لتبادل الحديث الودى معاً، وفى تلك الأثناء، كان الجزء الرئيسى من الجيش الأسبانى خارج المدينة، وفى ذلك الوقت، كان المقاتلون الهنود مختبئين فى كمين بالداخل ومستعدين بالأقواس والسهام. وقد أخذ دى سوتو معه عددا قليل من الرجال، وواصل المسير مخالفاً بذلك نصيحة ضباطه، وبإشارة من الزعيم الهندى قفز المقاتلون الهنود، وهاجموا الجماعة الأسبانية الصغيرة، وكان دى سوتو قد جرى أمام الآلاف من السهام، كى ينجو بحياته، وفى أثناء ذلك سقط مرتين على الأرض وجرح فى المرة الثانية جرحاً خطيراً، ومع ذلك فقد نجح دى سوتو فى الوصول الى الجيش المرابط فى الخارج، وقد مات من رفاقه خمسة أشخاص، وقد أمر دى سوتو بمحاصرة المدينة وأضرم فيها النار، وقام بحجز الهنود بداخلها، ووقف الجنود الأسبان عند البوابات، ومنعوا الهنود من الهرب. وفى نفس الوقت قام بعض الجنود الآخرين بإبادةهم، ومع ذلك فقد حارب الرجال الحمر حتى الرمح الأخير، وبحلول الليل، كان قد قتل من الهنود ٢٠٠٠ رجل بواسطة الأسلحة الأسبانية، كما قتلوا باندفاعهم الى داخل المنازل المشتعلة، عندما لم يعد فى مقدورهم مواصلة القتال. بوقد فقد عشرون أسبانيا حياتهم وجرح مائة وخمسون رجلاً آخرين، وبعد أن استراح الأسبان فترة قصيرة كى يشفوا من إصاباتهم استأنفوا سيرهم، وهم فى حالة من الضعف صوب الشمال الغربى. وكانوا فى حالة من

الاعياء جعلتهم يشقون طريقهم بصعوبة من خلال مئات الأميال فى داخل الغابات الكثيفة والأراضى المستنقعية فى منطقة الألاباما والميسيسبى، وكان الشتاء قاسيا ببرودته فضلا عن مضايقة الهنود المستمرة للأسبان، وكان دى سوتو مغرورا بحيث لم يعد الى الساحل ويبتظر سفنه كى تنقذه.

وفى يوم من عام ١٥٤١م- وفى شمال نهر الميسيسبى الواقع على مسافة ٣٠ ميلا جنوب موقع معفيس وتيس - وصل دى سوتو الى النهر الكبير، وفيما بعد، كتب واحد من رجاله يقول "كم كان هذا النهر واسعا لدرجة إنه لم يكن فى إمكان أى رجل التعرف على شخص واقف على الشاطئ المقابل من النهر وفى نفس الوقت، كان دى سوتو يراقب الأشجار والطحالب البحرية الكثيفة، التى تكونت نتيجة للخشب العائم الذى حملته التيارات الشديدة، وعرفت جماعة دى سوتو أن هذا المجرى ليس مجرى عاديا، ولم يكن خروجهم لاستكشاف انهار كبيرة، بل استكشاف ذهب ومضيق يوصلهم إلى المحيط الهادى. وكان نهر الميسيسبى عبارة عن مسطح مائى كبير يعوق تقدمهم لهذا قضى رجال البعثة شهرا فى بناء أربع مراكب، ثم عبروا هذا النهر ، وتابعوا بحثهم فى الجانب الآخر دون اعتبار لهذا النهر، الذى لا يفوقه نهر آخر فى أواجه، وبعد شهور عدة قضاها أفراد البعثة فى تجولات لافائدة من ورائها، تقدموا مسافات بعيدة إلى تكساس، وبعد ذلك استعدت البعثة للدفاع عن نفسها، وذلك بحفر الخنادق التى سيقضون فيها فصل الشتاء، وكانت هذه المنطقة تعرف بوادى نهر أركانساس، وبحلول عام ١٥٤٢م، أصبحوا فى حلة من اليأس، فقد قضوا ثلاث سنوات فى البحث، ولكن دون جدوى، مع أنهم كانوا قد فقدوا ٢٥٠ رجلا، كما فقدوا مامعهم من بارود، فضلا عن نقص المؤن، وتمزيق ملابسهم، زيادة على قسوة الشتاء، لذا عانى الجيش - قليل العدد - من شدة البرد وخرابة الجوع.

وفى النهاية، قرر دى سوتو أن يذهب الى البحر ويحاول الوصول الى مكسيكو وفى خلال شهرى مارس وابريل إتخذ دى سوتو طريقة الى وادى أركانساس، فبدلا من أن يقوده هذا الطريق إلى شاطئ خليج مكسيكو - كما كان يأمل - قاده الى نهر الميسيسبى الواقع على مسافة مئات الأميال شمال خليج مكسيكو، وفى موقع ناتشن

الحديثة والواقعة فى منطقة المسيسيبي أصيب دى سوتو بالحمى الشديدة، ولانزم بسببها الفراش الذى كان مصنوعا من القش. وقد رقد هناك شهرا مات بعده، وخشى رجاله من أن يكتشف الهنود موته، ففى هذه الحالة سيشتعرون بالشجاعة، ثم يعاودون الهجوم من جديد، ولكن رجاله أخفوا جثته، وعلى أية حال ، لاحظ الهنود اختفاء قائد البيض عندما سألوه عن، وفى تلك الأثناء، أخبر الأسبان الهنود بأن دى سوتو قد ذهب الى السماء - فهذا شئ كان دى سوتو معتادا عليه من وقت لآخر - وسيعود فى أقرب فرصة، وبسرية تامة، وفى جنح الليل، لف الأسبان الجثمان فى عدد من البطاطين المنسوجة من شعر الجاموس، وأثقلوه بالرمال ثم نقلوه من مكانه الى النهر، وهناك قامت جماعة الفرسان الصغيرة المسلحة، والكهنة المحجيين بإلقائه فى قاع النهر، وذلك على ضوء نور زورق صغير.

وكان قرار الجيش بعد ذلك، هو محاولة الوصول الى مكسيكو، وذلك بالمسير فى اتجاه الغرب، وكافح الرجال الذين ظلوا على قيد الحياة طوال فصل الصيف، ولكن بعد أن قطعوا مئات الأميال، وتخلوا عن الأمل، وعادوا الى المسيسيبي. وهناك بنوا قوارب وسرقوا زورقا صغيرا، وبدأوا بعد ذلك فى المسير بحذاء النهر لمسافة ٧٠٠ ميل، حتى وصلوا الى الخليج، وكانت هذه المخاطرة من أجل الهرب، وكان الأمل الأخير لرجال انتابهم اليأس وبخاسة بعد أن غرق البعض منهم عندما انقلب بهم الزورق وقتل البعض الآخر بسهام الهنود التى كانت تنطلق عليهم من شواطئ النهر، مع أنهم كانوا يسرعون بقواربهم، وبعد ذلك انهالت عليهم الضربات فكان من الواجب عليهم التجديف لمئات الأميال، ابتداء من مصب نهر المسيسيبي وعلى طول ساحله وحتى خليج مكسيكو، وفى النهاية، وبعد عدة شهور، وصلوا الى المستوطنة الأسبانية بانوكو Panuco الواقعة فى مكسيكو، فقد بقى على قيد الحياة ٣١١ رجلا فقط من الرجال البالغ عددهم ٦٠٠ رجل، والذين كانوا قد رسوا مع هيرناندو دى سوتو فى فلوريدا، وعند وصولهم لبانوكو، كتب أحدهم يقول "الكثير منهم فقز على الشاطئ وأخذ يقبل الأرض، وانحنى الجميع على ركبتيه، ورفعوا أيديهم الى أعلى وأعينهم تنقلب فى السماء وهم يشكرون الله مرة تلو الأخرى".

وهكذا، فقد انتهت المغامرة الكبيرة دون جدوى، مع أن دى سوتو كان قد شعر بأنه متأكد من تحقيق الربح، ولكى يأخذ على عاتقه تحقيق هذا العمل باع قصره فى سيفيل Seville (أشبيلية) واستثمر ثمنه فى واحدة من أكبر المغامرات خطأ فى أسبانيا. وعند وفاته كانت أمواله عبارة عن خمسة عبيد، وثلاثة خيول، وقطيع من الخنازير. وبهذا الفشل المأساوى لكل من كورونادو، ودى سوتو، تخلت أسبانيا والى الأبد عن مسألة المدن السبع الأسطورية فى كييولا، وطوال الأربعين سنة التالية قنع المغامرون الأسبان بشحن الثروة التى يحصلون عليها من جزر الهند الغربية، ومكسيكو وجنوب أمريكا إلى وطنهم، وعندما كان كل من كورونادو، ودى سوتو يخترقان اليابسة الى قلب القارة، كان مندوزا حاكم مكسيكو يواصل تفحصه للمضييق المحير الذى من الممكن ان يربط بين الأطلنطى والباسفيك. وقد رغب فى أن يرى ماذا كان هذا المضييق يقع فى النهاية الغربية، وذلك عن طريق كشف ساحل غرب أمريكا. ومن أجل هذا الغرض وضع سفيتتين تحت إمرة جوان رودريجز كابريلو Juan Rodriguez Cabrillo كى يبحر بهما نحو الشمال، وهو ملاح برتغالى يعمل فى خدمة أسبانيا وفى عام ١٥٤٢م، أبحر كابريلو على طول ساحل كاليفورنيا، وواصل المسير بعيداً حتى وصل الى خليج سان فرانسيسكو، وهناك مرض ومات، ومن بعده باشر مرشده بارتولومى فيرولو Bartolome Ferrelه قيادة الأسطول الصغير، وواصل المسير شمالا الى الساحل الجنوبى من أوريجون Oregon، وبعد ذلك عاد لأن السفن لم تعد صالحة لأبحار، ولم يكتب كل من كابريلو ومرشده اى إشارة عن الطريق المائى الذى يمر من خلال أمريكا حتى الأنديز. وقد أجبر المكتشفون الأسبان على التخلّى عن هذا الأمل أيضاً.

ماس كندا

كان جاك كارتيه * Jacques Cartier ملاحا قديرا، بدأ رحلته من ميناء سنت مالو St. Malo الواقع في بريتانى Britany بفرنسا، وكان يرفقته عشرين سفينة حديد أسماك، وكانت هذه السفن تعبر المحيط الأطلنطي بانتظام كل سنة الى شواطئ نيوفونلاند الكبيرة، وكانت هذه الرحلة تساند أيضا من جانب ملك فرنسا، فرانسيس الأول، وكان كارتيه Cartier قد أبحر في ٢٠ من شهر ابريل عام ١٥٣٤م، وبصحبه ٦١ رجلا، كانوا جميعا على ظهر سفينتين شراعيتين صغيرتين، وحمل كل فرد على ظهرهما أربعة مدافع، وكان الهدف الأساسى من إرسال هذه البعثة هو البحث عن طريق يوصل الى الهند بحيث يمر من خلال الجزء الشمالى من أمريكا، وبعد فترة من الوقت، وصل كارتيه الى الساحل الشرقى لنيوفونلاند، وهناك توقف ليصلح سفنه، وبعد ذلك، أبحر من خلال مضيق بل Bell Isle الواقعة في خليج سنت لورنس، وكان لديه آمال عريضة في إيجاد طريقه نحو الغرب مارا من خلال القارة، عبر الخليج وكان في تلك الأثناء حزينا ومتهاكيا، لأنه وجد طريقة مسدودا بسبب وجود عقبة في الطرف الغربى لخليج تشالور Chaleur.

وكان جاك كارتيه مصادقا لرجلين، هما أبناء الرئيس الأركوازي الذى كان يعيش فيما يعرف الآن بمنتريال، وقد خدماه كدليلين. وقد تحدث هذان الهنديان عن كندا وطنهم الأصلى، وعن أمجاد هذا الوطن، الواقع بعيدا نحو الغرب، والذى أسموه ساجونى Sagunay، ويصف الهنديان ساجونى بأن سكانها كانوا على جانب كبير من الثراء، فكانوا يرتدون ملابس مثل ملابس كارتيه، الذى تساعل، عما اذا كان يسمع عن جزء من مملكة خان الصين العظيم، وفي بحثه عن خليج سنت لورنس دخل كارتيه

* ومن المحتمل ان يكون رجال كارتيه قد رأوا الهنود، وهم يقومون بقتل طيور بحرية، وطيور البطريق في جزيرة العصفائر الواقعة في خليج سنت لورنس (المؤلف).

قناة تقع بين جزيرة انتيكوستى Anticosti وساحل الليبرادور Labrador وهنا كان التيار يجرى بانسيابية ضد كارتية، وبخاصة عند جزر البحر حيث أن السفن كانت لاتستطيع التقدم إلى الأمام فعادت أدراجها وحتى عندما رغب كارتية فى الأبحار، أنزل مركبا طويلا كان على ظهره ١٣ رجلا كى يقوموا بالتجديف وكان من المستحيل استخدام هذا المركب فى التقدم الى الأمام. وعند هذه النقطة الصعبة ، كان الصيف يقترب من الإنتهاء تقريبا، كما تناقصت المون فى الوقت نفسه، وعند ذلك قرر كارتية أن يذهب الى الوطن (فرنسا) وبرفقته هنديان، وفى شهر مايو من العام التالى أبحر كارتية الى أمريكا مرة ثانية، وكان فرانسس الأول قد أعطاه هذه المرة ثلاث سفن، منها اثنتان من نوع الهرمين Hermine، وكانت الثالثة من النوع الشراعى. وقد بلغت سعة أكبرها ١٢٠ طنا ، وسعة أصغرها ٤٠ طنا أما سعة المتوسطة فهي ٦٠ طنا، وفى تلك الأثناء، قام كارتية بالنوران من حول الخليج، ولكن خاب أمله للمرة الثانية، ولم يوجد هناك فى أى مكان أى شئ يشبه المضيق لذلك، عاد كارتية، الى مصب نهر سنت لورنس.

وقد أخبر الهنود كارتية، بأنه لا يوجد هناك طريق يؤدي إلى بحر آخر، وكل ما يوجد هناك هو نهر يبلغ عرض مصبه ٧٥ ميلا، ويضيق هذا المصب كلما بعدنا عنه، ويصبح ماؤه عذبا، وقال الهنود أن هذا النهر يوصل الى وطنهم الذى يسمونه هوتشلاجا Hochelaga وإلى الشمال من وطنهم يوجد وطن ساجونى الجميل Saguenay، وبعد ذلك قرر كارتية الإبحار مع النهر، وفى كل مكان، كان أعضاء البعثة يقومون بعمل صداقة مع الهنود، وفى بعض الأحيان كان الهنود يطلبون من الفرنسيين البقاء معهم، وقد قدموا للرحالة الفرنسيين كميات ضخمة من الفزلان، ومن السمك الطازج، ومن الذرة والفواكه وجوز الهند، وجلود الحيوانات، وزيت الحوت والماعج الذى يمثل أنياب أفيال البحر، وعند مدينة تقع بالقرب من المكان الذى تقع فيه فى الوقت الحاضر مدينة كوبيك، حاول الرئيس الذى يدعى دونا كونا Donnacona أن يمنع كارتية من مواصلة السفر الى هوتشلاجا، وقد أغراه بتقديم العبيد له كرشوة، ومع ذلك فقد فشل فى إقناعه، ثم حاول بعد ذلك أن يجرب معه حيلة أخرى، وفى إحدى

الليالى ظهر فجأة ثلاثة هنود كانت وجوههم سوداء، وضعوا على رؤوسهم قرونا طويلة، وقد فسروا ذلك ببساطة إنهم كانوا شياطين، أرسلوا من السماء كى يحذروا كارتيه من الذهاب الى هوتشيلاجا، ولكن اذا أصر كارتيه على الذهاب فإن الإله سيجعل هذه المنطقة تمتلئ بالثلج والجليد، وفى هذه الحالة فإن جميع الفرنسيين سيتجمدون حتى الموت، ولكن أجاب كارتيه إنه يثق فى إلهه، وإنه سيحفظه فى أمان. وبعد ذلك غادر كارتيه هذا المكان، وبعد أسابيع قليلة، وصل الى هوتشيلاجا، مدينة أوروكوانى المسورة التى كانت تضم خمسين منزلا من المنازل الضخمة.

واعتبر الوطنيون الرجال البيض آله، فأحضروا لهم مرضاهم وألقوا بهم أمام كارتيه لعرقلته، وسألوه أن يضع يديه عليهم لشفائهم، وقرأ كارتيه اليهم من الإنجيل وصلى من أجلهم ووزع عليهم الهدايا. وتسلق كارتيه التل الكبير الذى يوجد بالقرب من القرية، وأسماء مونت ريال Mont Real. ومن على قمته استطاع أن يشاهد الأرض من على مسافة أميال كثيرة وقال: "أن الأرض مسطحة، وأنها صالحة للزراعة، ومن المتوقع أن يكون هذا القطر هو أجمل قطر رآه كارتيه فى أى مكان فى العالم، وأضاف يقول: "وعلى مسافة بعيدة من مرمى البصر شاهدت نهرا واسعا يتدفق من خلال هذا القطر، وتتناثر فيه أربعة شلالات، ولكن فيما وراء هذا الشلالات كان فى امكان الفرد أن يبحر على الأقل أكثر من ثلاث ليال قمرية. ومرة ثانية، أصبح الطقس باردا، وهبط كارتيه عائدا مع النهر الى كويك، بينما ترك جماعته فى مونتريال * مدة فصل الشتاء، وطوال مدة الشهور الباردة كان لا يوجد هناك خضروات طازجة أو فاكهة، لذا تعرض رجال البعثة لمرض الإسقربوط، ولكن كارتيه علم من الهنود كيفية محاربة الأمراض، وذلك بالحصول على شراب من الشجر الأخضر، الذى كان يستخرج بواسطة آلة حادة.

وقضى الرئيس دوناكونا، أمسيات شتوية يحكى فيها لكارتيه عن أمجاد

* فى عام ١٥٣٥م زار كارتيه هوتشيلاجا، وهى تمثل القرية المسورة، الخاصة بهنود الأروكان، وهم تقع على نهر سنت لورنس، والتى تمثل فى الوقت الحاضر مدينه مونتريال (المؤلف)

ساجونى. وكان من المحتمل أن يكشف كارتية ساجونى، ولكن عندما قرر ذلك كان فى حاجة الى بعثة جديدة، ولكى يحصل على مساعدة من ملك فرنسا، قرر كارتية أن يأخذ دوناكونا الى فرنسا، ويدعه يحكى للملك عن ساجونى وعجائبها، وعندما اقترب موعد سفره الى فرنسا، قام بخطف دوناكونا، وعددا قليلا من أصدقائه، وكان قد وعدهم بأنه سيرجعهم الى وطنهم بأمان فى غضون شهور قليلة. وعندما وصل كارتية الى باريس، وجد الملك فرانسيس الأول فى ضائقة مالية لهذا رفض هذا الملك أن يخاطر بإرسال بعثة كشفية أخرى الى أمريكا، تكلفه مبلغا كبيرا من المال، ولكن كارتية حث الزعيم دوناكونا بأن يقوم بوصف ساجونى الى الملك الفرنسى، وقد عرض دوناكونا فى وصفه لساجونى عرضا جيدا، فقد أخبر الملك فرانسيس بأنه زار أرض ساجونى. ورأى هناك بعينه المجردتين كميات كبيرة من الذهب والياقوت الأحمر وأشياء أخرى ثمينة، وقد تأثر الملك بذلك تأثرا عميقا، ومع ذلك فيما يبدو كان لا يزال أمامه سنوات عديدة، يستطيع بعدها أن يزود كارتية بالأموال اللازمة كي يقوم مرة ثانية على رأس بعثة الى أمريكا. وفى تلك الأثناء، كان دوناكونا، قد مات فى فرنسا. وقد كان هذا المشروع مغريا، فقد قاد كارتية حملته الثالثة الى كندا فى مايو عام ١٥٤١م، وهناك قام بتأسيس مستعمرة فى أمريكاتعرف بمستعمرة فرنسا الجديدة. وكان الملك قد ساهم فى هذه البعثة بثلاث سفن، كما زوده أيضا بأكثر من ١٠٠٠ رجل. وكان فى مقدمة هؤلاء علاوة على كارتية وكل من جيان فرنسوا دى لاروك Jean Francois de La Rocoue، والسير دى روبرفال Sieur de Roberval، وعندما تأخر روبرفال أبحر كارتية بمفرده على رأس خمس سفن.

وعندما وصل كارتية الى موقع قرية هوتشلاج Hochelaga القرية التى كان قد عرفها قبل أن تختفى، وجد فقط مكانا مهجورا وسط الغابات، وبالقرب منها وجدت ثلاث قرى هندية جديدة، ضمت أناسا لم يرههم كارتية أبدا من قبل، ومع ذلك فلم يفكر كارتية فى الوصول الى ساجونى، فبدلا من الوصول اليها عاد الى كويبك، وقضى الشتاء هناك بالقرب من تلك المدينة. وفى صيف عام ١٥٤٢م أبحر كارتية عائدا الى فرنسا بسبب عدااء الهنود للفرنسيين، وربما أيضا بسبب الكشف المثير الذى قام به فى

منطقة تقع بالقرب من موقع القيادة الشتوى، وهذا الكشف كان عبارة عن منجم، وكان كارتيه قد قام بالتنقيب فيه لاعتقاده بوجود ثروة كبيرة، تتمثل فى وجود براميل مملوئة بالذهب الخام والفضة، كما كانت تتمثل فى وجود سلة مملوئة بالأحجار الكريمة والياقوت الأحمر والماس. وفى الواقع كان هذا المنجم الذى تم العثور عليه، عبارة عن "منجم ذهب مزيف" فكل مايوجد فيه كان عبارة عن كبريتات الحديد الخام التى بدت وكأنها معدن مصفر فى الصخر، فهو يمثل الميكا التى تشبه الماس، بل وتمثل كريستال أكسيد الألمنيوم الذى يكون شبيها بالياقوت الأحمر والأزرق، وعلم كارتيه، بعد أن عاد الى فرنسا أن كل الأشياء التى حملها الى أرض الوطن كانت عبارة عن نفايات. ومنذ ذلك اليوم، أطلق الشعب الفرنسى اصطلاح كلمة "الغش" على ماس كندا Voila un diamant de canda.

وهكذا، وفى عام ١٥٤٣م، وضع الأسبانيون حداً - كما توقعوا للبحث عن مضيق بحرى يمر من خلال قارة أمريكا الشمالية، وبذلك تخلوا عن بحثهم عن المضيق الذى يمر عبر كندا، ولم يقوموا باستكشافات منظمة لمدة من الزمن بلغت ٦٠ عاماً.

فرنسا تشامبيليان الجديدة

فى القرن ١٦م، توقف مستقبل أمريكا إلى حد كبير على نمط قبعة، فعندما كان صيادو الأسماك يمارسون الصيد فى الشواطئ الكبيرة لنيوفونلاند، كانوا يبحرون فى خليج سنت لورنس، وحصلوا من المواطنين على فراء كلب البحر الثمينة، وذلك بمبادلتهم بالسكاكين والفئوس، فكانوا يصنعون من شعر كلب البحر هذا قماشا ناعما كالقطنية، فالقبعة التى كانت تصنع منه كانت جميلة بحيث تعيش لسنوات طويلة، وفى تلك الأثناء كان الأوروبيون الأثرياء يقدرون قبعاتهم المصنوعة من جلد كلب البحر. وقد ذهب الرجال البيض إلى أمريكا كي يتاجروا مع الهنود فى جلود كلب البحر، وبعد فترة طويلة، تولى المستكشفون الأسبان والفرنسيون عن بحثهم عن مضيق يوصل إلى المحيط الهادى، وركزوا جهودهم فى تجارة الفراء الكندية التى زادت زيادة مضطردة وبحلول عام ١٦٠٠م، أصبحت تجارة الفراء مربحة، حيث تنافس عليها رجال الأعمال الفرنسيون، والتجار الكبار من أجل احتكارها، لذا رغب الملك الفرنسى هنرى الرابع فى الحصول على أرض فى أمريكا، لهذا أرسل رجالا فرنسيين كي يعيشوا هناك وبعد ذلك أصدر الملك مرسوما جاء فيه أنه إذا ارادت أى مجموعة من رجال الأعمال أن تحتكر تجارة الفراء فعليها أن تقوم بتأسيس مستعمرة فى أمريكا*.

وتكونت شركة لهذا الغرض وكان أول شئ قامت بعمله هذه الشركة هو أنها أرسلت خبيرا فى علم الجغرافيا ليستطلع أحوال القطر، ومعرفة من أين يأتى إليه الفراء وكان الرجل الذى اختير لهذا الغرض هو صمويل تشامبيليان Samuel Champlion الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ٣١ عام، والذى أصبح بعد ذلك واحدا من أهم الأشخاص الذين ظهروا فى أول عصر الاستكشافات الأولى فى أمريكا الشمالية، وعندما قام تشامبيليان برحلته الأولى فى نهر سنت لورنس عام ١٦٠٣م، لم

* أصبحت فرنسا الجديدة مستعمرة ذات أهمية، بسبب صيد الأسماك من نيوفونلاند، وبسبب انتاج الفراء من الغابات (المؤلف).

يكن هناك مستوطنة أوربية واحدة فى أى مكان على طول الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية الواقعة إلى الشمال من النقط الأمامية الأسبانية فى فلوريدا، وعندما وصل تشامبليان إلى نهر سنت لورنس، وقف عند مدينة هندية تسمى تادوساك Tadousac. وبعدئذ واصل المسير مع التيار الى نهر ساجونى. وبعد أن التقى ببعض الهنود الذين كانوا، قد وصلوا إلى هناك، والذين كانوا يتجرون فى الفراء، كانوا قد تحدثوا مع تشامبليان الذى كتب يقول: "إن هؤلاء الهج جاؤا من الشمال، ويقولون إنهم شاهدوا فى وطنهم بحرا مالحا، وعندئذ اعتقد تشامبليان إنه اذا كان مايقوله هؤلاء الهنود صحيحا فإن ذلك يدل على إنه خليج مثل خليجنا الذى تفيض مياهه الى الشمال فى وسط القارة". وكان تخمينه صحيحا فهذا الخليج هو الخليج الذى اكتشفه هنرى هدسون بعد سبع سنوات وعرف باسمه، وقضى تشامبليان ثلاثة شهور فى تفحص هذه المنطقة نفسها، التى كان كارتيه قد أكتشفها من قبل. فعلى وجه التحديد كان قد توقف الى الشمال من هذه المنطقة بسبب شلالات لاشين lachine، التى تعترض مجرى نهر سنت لورنس St. Lawrence R.

وعندئذ كان على تشامبليان أن يعود من حيث أتى، لأنه لم يكن يملك أى زورق. وفى تادوسك هذه تاجر تشامبليان مع الهنود، وقد شحن سفينة بشحنة من الفراء الثمين، وبعد ذلك عاد الى فرنسا، وعند عودته الى أرض الوطن أوضحت تقاريره الرؤيا لمواطنيه عن القطر الواقع عبر الأطلنطى. وقد أدى ذلك إلى إثارة الناس حتى أن أكثر من سفينة كانت قد أرسلت الى أمريكا. وفى هذا الوقت ذهب تشامبليان مرة ثانية الى أمريكا بصفته جغرافيا خاصا من قبل الملك. وفى خلال السنوات الخمس التالية اكتشف تشامبليان مناطق سنت لورنس ونوفاسكوتيا والأرض الواقعة فى الجنوب الغربى التى عرفت فى تلك الأثناء بنيوانجلاند، وقد ظهرت هذه المناطق على الخريطة التى رسمت لخط الساحل ابتداء من رأس جزيرة بريتون، وحتى جنوب ماساشوسيتس، كما قام تشامبليان أيضا بعمل صداقات مع الهنود، وكان يأمل فى أن يقوده هذا البحث إلى مكان يشيد فيه مستوطنة فرنسية. وقد عاد تشامبليان بسفينته المعروفة باسم لوبون دى ديو Le Don De Diew أو هبة السماء The Gift of God

إلى منطقة سنت لورنس، كى يشيد هناك مستوطنة، وعند منطقة من هذا النهر الكبير - الذى أسماه الهنود روبيك Rebec أو المجرى الضيق - قدمت زوارق كثيرة وهى محملة بكلاب البحر وبالحوانات الأخرى ذات الفراء، كما أنها شحنت أيضا بالجلود الأخرى لكى تتم عملية المقايضة مع الرجال البيض. وفى عام ١٦٠٨م، - وعلى تنق لسان أرض داخل البحر- بدأ تشامبليان فى تنفيذ المهمة الأولى الخاصة بوضع أساس مدينة كوبيك.

ولعدة أجيال، تعرض الألجونكوينز Algonquins أصحاب هذا القطر، والقاطنين إلى الشمال من النهر إلى هجمات الأيروكواز الشجعان والقاطنين فى الجنوب. وكان تشامبليان بطبيعته رجل سلام، فقد وجد نفسه مجبرا على الإنخراط فى مشاكل هؤلاء الهنود. واختار ان يكون حليفا لجيرانه من هؤلاء الناس الذين تاجروا معه وهم الألجونكوينز، ومع شعوب أخرى تقطن فى الشمال وقد سمع تشامبليان عن بحيرة كبيرة تقع فى الجنوب، وقيل إنه يوجد بها عدد كبير من الجزر الجميلة. وتقع هذه البحيرة فى وسط قطر خصب وغنى. ومن منطقة نهر سنت لورانس يمكن الوصول بالنزوق الى نهر ريشيليو Richelieu الذى رغب تشامبليان فى القيام بزيارة كشفية طويلة وسلمية الى منطقتة. ولكن فى عام ١٦٠٩م، طلب الهنود الهيون من تشامبليان الإنضمام الى جماعتهم المحاربة، وذلك لمساعدتهم فى غزو الأيروكواز. وقد اصطحب ثلاثة من الفرنسيين فقط - هؤلاء الهنود - هم تشامبليان نفسه وجنديان - كما اصطحب ستين مقاتلا من الهنود بزوارقهم، واتجهوا جميعا الى البحيرة وكان الأوربيون الثلاثة يحملون معهم أسلحة نارية قديمة، كان من أهمها بندقية رش.

وبعد أن طافوا فى مياه البحيرة مدة ثلاثة أسابيع، التقوا بعدها بأسطول كبير مكون من عدد من الزوارق التابعة للأيروكواز. وفى صباح اليوم التالى بدأ الصراع بين الجماعتين على شاطئ البحيرة، وبدأت السهام تتطاير لأعلى وفى الوقت نفسه ، كان تشامبليان فى مقدمة القوة الشمالية الامامية عندما بدأ فى إطلاق النيران من أسلحته. كما اطلق الجنديان النيران من الجانب الآخر، أى أنهم فعلوا مثل ما فعل تشامبليان، وقد سقط ثلاثة قتلى من الأعداء. وقد ارتعد الموهاوكس Mohawks من أصوات

البنادق. ومن رؤية سقوط رجالها. وأما تشامبليان فقد قام بتأسيس حواجز خشبية، وفي الوقت نفسه انتهز الهنود الفرصة وحققوا النصر على منطقة كويك. وكانت نتائج هذه البعثة هامة بالنسبة الى الرجال البيض، بالإضافة الى الهنود. ففى تلك الأثناء، كان تشامبليان *، قد شاهد الطول والمساحة الكلية للبحيرة. وطالب مكتشفها بأن كل المنطقة التى تم كشفها والتي يبلغ طولها ١٥٠ ميلا تضم الى فرنسا. وقد أطلق على هذه البحيرة اسم بحيرة تشامبليان التى لاتزال تحمل اسمه، وبعد عدد قليل من السنوات، جاء الى تشامبليان أصدقاءه من هنود الجونكويز وهم يحملون معهم خطة حربية أخرى. وكانت خطتهم هذه تتمثل فى توجيه ضربة قوية إلى هنود الأوركوازي، وذلك بالقيام بهجوم على حصن الأعداء القوي الذى على مسافة آلاف الأميال، أى يقع بالقرب من مدينة أونيدا الحديثة، الواقعة فى وسط ولاية نيويورك، واحتاج هؤلاء الهنود الى تشامبليان كى يقودهم فى هذه المعركة. وعرف تشامبليان، أن هذه المغامرة ستتيح له الفرصة فى كشف مناطق مجهولة جديدة فى الغرب والجنوب. فكان قد سمع عن وجود بحار عذبة كبيرة هناك، لذلك قرر أن يذهب الى هذه المنطقة. وفى يوليو من عام ١٦١٥م، بدأ رحلته على رأس بعثة حربية صغيرة، كانت على ظهر سفينتين، وتكونت هذه البعثة من خادم فرنسى، ومترجم، وعشر هنود. وقد اتجهت هذه البعثة الى نهر أوتاوا Ottawa، وبعد ذلك اتجهت غربا الى خليج جورجيا المتصل ببحيرة هورن Huron. وكان الهنود قد اختاروا طريقا يتجه مباشرة الى الطرف الشرقى من بحيرة أونتاريو Ontario. ومن بعدها يتجه الى الداخل مارا عبر ولاية نيويورك، حتى يصل إلى نقطة تقع بالقرب من بحيرة أونيدا Oneida، وبعد ثلاثة شهور من مغادرة كويك انتظر تشامبليان فى هذه المنطقة بينما بدأت الجماعات الهندية

* استعمل تشامبليان على ظهر السفينة هذا المقياس الخيطى والساعة الرملية، كمساعدى له فى الملاحة، وفى عام ١٦٠٤م، ١٦٠٥م اكتشف هو ومساعداه السير دى مونتس Sieur de Montes جبل مهجور فى منطقة المين Main كما اكتشف ايضا ساحل نيوانجلند، ثم ابجر جنوبا ماراً برأس الكود Cape Cod حتى وصل الى فنبارد مارتاس Martha's Vineyard. (المؤلف).

المتحالفة الثورة العارمة. وبعد ذلك تقدم تشامبليان ومعه قوة قتالية الى قلعة الأوركواز. وفي لحظة ما أصبح هنوده على مرأى من الأعداء، وبدأوا هجومهم بلا ترو ولا تخطيط. وعلى الرغم من أن الكثير من الأوركوازيين الموجودين في داخل الحصن كانوا قد قتلوا أو جرحوا بواسطة بنادق الفرنسيين، إلا أن الخسائر كانت كبيرة بالنسبة للفرنسيين وحلفائهم، وذلك بسبب مهاجمة الألجونكينز، والهيورنز، الذين كانوا أكثر عددا. وبعد عدة أيام من إنتهاء المعركة تراجعت قوات تشامبليان،، ولقد جرح تشامبليان نفسه، وحمله هنوده بعيدا في سلة، ومكث هناك فصل الشتاء على شاطئ بحيرة أونتااريو، وكان تشامبليان في هذه الفترة تحت رعاية الهيورنز. وعندما أصبحت الطرق صالحة للمسير في الربيع عاد تشامبليان الى كويبك. ومع ذلك فقد أبعدته الأعمال في المركز التجارى عن القيام بالمزيد من المغامرات الاستكشافية. فكان يرسل أتباعه بصفة مستمرة للقيام بالبحث عن مضيق أو عن بحر في الداخل ، ولم يفقد تشامبليان الأمل في العثور عليه. وقد استكشف هؤلاء الرجال الأرض في جميع الاتجاهات، وذلك أضاف الكثير إلى المعرفة الأوربية عما يسمى في الوقت الحاضر بالولايات المتحدة الأمريكية. وكما اكتشفوا نهر المسيسيبي الذى يقع على مسافة بعيدة، وبذلك أضاف هذا الكشف المعرفة عن جنوب كندا وحتى خليج تشيسابيك Chesapeake.

ولم يقنع الفرنسيون بما فيهم تشامبليان * نفسه بكويبك كمستعمرة فرنسية، ففي عام ١٦٢٠م لم تزد عن كونها مركزا تجاريا، يضم خمسين فرنسيا فقط يعيشون هناك وفي تلك الأثناء - قام الإنجليز بتأسيس مستعمرات في جيمس تون وفرجينيا، ويليموث وماساشوسيتس، وبحلول عام ١٦٢٥م أسس الهولنديون مركزا تجاريا في

* كان منزل تشامبليان في كويبك، عبارة عن بناء محصن، وكان يسمى الابيتشان Abitation وكان تشامبليان قد مات يوم عيد رأس السنة من عام ١٦٣٥ في المدينة التي أسسها قبل ذلك بـ ٢٧ عاما.

أطلق تشامبليان نيران أسلحته على الأوركواز. وكان معضدا من جانب حلفائه من الألجونكين والهيورنز. وقد وقعت معركة تيكونديروجا Ticonderoga في صيف عام ١٦٠٦ على شاطئ بحيرة تشامبليان. وأبرزت هذه المعركة عداء الأوركواز لفرنسا (المؤلف)

نيوامستردام ولم يكن لدى باريس الرغبة الصريحة فى منح تشامبليان كل ما يحتاجه من إمدادات. وفى النهاية، تأكدت من أن فرنسا الجديدة من المحتمل أن تخسر السباق مع القوة المنافسة، وباختصار، دخلت إنجلترا الحرب ضد فرنسا، وقامت السفن البريطانية بعد ذلك، بغزو منطقة سانت لورانس. وفى التاسع عشر من شهر يوليو عام ١٦٢٩م، أجبر تشامبليان على التنازل عن كويك، وأخذ هو والمستعمرون الآخرون من زملائه إلى إنجلترا كأسرى حرب، ولكن عند وصولهم إلى إنجلترا، علم أسروهم أن الحرب كانت قد انتهت، لهذا أطلقوا سراحهم، وعاد تشامبليان إلى فرنسا، وبذلك يكون قد قضى تقريبا على حياة فرنسا الجديدة، وبعد ذلك قضى تشامبليان معظم وقته فى باريس فى محاولات من أجل الحصول على الموافقة على العودة إلى مستعمرته فكان قد رغب فى الحصول على المزيد من التأييد لمستعمرته، وكما رغب فى الحصول على مستوطنين، وعلى قوة مسلحة كبيرة لتساعده فى اتمام هزيمة الأوركواز.

ومع ذلك، فقد فشل فى الحصول على المساعدة التى طلبها من حكومته (حكومة فرنسا) وفى عام ١٦٣٢م عاد تشامبليان الى كندا، وهناك قرر بناء المستعمرة من جديد، وقد وجد ترحيبا كبيرا. ورغبة لحدود لها من جانب الهنود فى البقاء معهم. ومع ذلك فلم يستطع تشامبليان كشف مناطق جديدة. ولكنه ظل يرسل رجاله فى مهمات كشفية. وقد وصلت إحدى هذه البعثات التى كان على رأسها جيان نيوكوت Jean Nicolet الى بحيرة ميتشيجان، وواصل هذا المكتشف المسير مع الشاطئ حتى وصل إلى الخليج الأخضر الواقع شمال مانسميه اليوم شيكاغو. وكان نيوكوت قد وضع ضمن أمتعته ثوبا مطرزا بالأزهار والطيور، وقد صنع من القماش الحريرى الصينى، وكان نيوكوت يرتديه فى حالة ما إذا وجد نفسه داخل حدود الصين، وذلك عندما يستمر فى اتجاهه إلى الغرب.

وقد أرسل رجال آخرون وبعثات تبشيرية مسيحية أخرى من أجل فرنسا الجديدة، بل ذهبت هذه البعثات الى أماكن بعيدة ومتعددة. ومع ذلك، فلم يشاهد تشامبليان انجازاتهم، حيث كان قد مات عام ١٦٣٥، أى بعد سنتين من عودته إلى كويك، وقد حزن عليه الرجل الأبيض والهندي على حد سواء.

الطريق الشمالى الغربى

بحلول التسعينات من عام ١٦٠٠م، كانت هناك على الساحل الشرقى لأمريكا، أحداث على جانب من الأهمية، وقد تمثلت هذه الأحداث فى البحث عن خليج أو مدخل أو نهر يؤدي الى داخل القارة. فكان هذا الساحل قد اكتشف بواسطة المستكشفين الذين بحثوا عن بداية طريق يؤدي إلى الصين، باستثناء جزء واحد بعيد نحو الشمال. وبعد أن كشف كابوت Cabot القارة أصبحت بريطانيا مهتمة مرة ثانية بأمريكا، ففي عام ١٥٧٦م، وبعد أكثر من ٢٠ عاما على تخلى كارتية عن مهمته، بدأت إنجلترا فى البحث عن طريق يكون ذا أهمية فى الوصول الى الشمال الغربى. وفى تلك الأثناء، قام جندى يدعى السير همفري جلبرت Sir Humphrey Gilbert وهو أخ غير شقيق للسير والترو رالى Sir Walter Raleigh بالتخلى عن سيفه وبدأ فى قراءة كتب الجغرافيا الخاصة بأمريكا، كما قرأ كذلك الخرائط الخاصة بالعالم الجديد واستمر فى ذلك مدة طويلة. وكان السير همفري مقتنعا بشكل قاطع بأن أمريكا كانت تمثل جزيرة، وكان يوجد على طول الشاطئ الشمالى من هذه الجزيرة طريق تبحر فيه السفن من الغرب الى الشرق. وفى هذا الصدد كتب يقول مانصه "اقتصر هذا الكشف على أحد الأمراء من النبلاء الذى كان يهدف من وراء ذلك الى أن يحقق لنفسه الثراء فى العالم الجديد السعيد. وقد حصل همفري على تصريح من الملكة اليزابيث يخلو له إرسال ضابط بحرى جسر هو مارتين فروبشر Martin Frobisher الى أقصى الشمال. وقامت الملكة وأصدقائها بالإتفاق على هذه المغامرة.

وكان فروبشر هذا، قد قام من قبل ذلك بسنوات طويلة بعبور الأطلنطى وفى عام ١٥٧٦ قام على رأس بعثة وصل فى أثنائها الى صحارى القطب الشمالى الجدياء. واكتشف فى تلك الأثناء، تجويفا عميقا لا يزال يسمى بخليج فروبشر. وهناك أبجر فى اتجاه الغرب. وهر من خلال تجويف ضيق لمسافة أكثر من ١٥٠ ميلا، بحيث تحفه اليابسة من الجانبين. واعتقد ان الشاطئ الذى يقع على يساره هو شاطئ أمريكا والشاطئ الذى يقع على يمينه هو شاطئ آسيا، ولم يستمر فى المسير مسافة طويلة كي

يكتشف هذه القناة التي تضيق تدريجا حتى تنفلق فى النهاية. وهكذا، عاد الى انجلترا. وهو معتقد إنه اكتشف الطريق الذى يوصل إلى جزر الهند الشرقية. وكان واحد من رجاله قد ذهب على طول الشاطئ، بوعاد ومعه قطعة من الحجر الأسود، وبعد عودتهم الى انجلترا قام أحد الخبراء فى لندن بفحصها وبعد الفحص أعلن أنها ذهب. وكان فروبشر قد أرسل بعثة ثانية، وكان مزودا هذه المرة بتعليمات تقضى بأن يعود من هذه الرحلة، وهو يحمل معه الكثير من هذا الخام الأسود. وبالفعل عاد فروبشر وهو يحمل معه ٢٠٠ طن تقريبا من هذا الخام، ولكن بعد فحصه اتضح أنه ذهب مزيف ويعنى ذلك إنه ليس معدنا ثميننا ومن أجل ذلك فقد خسر كل الناس أموالهم التى استثمرت فى جلب هذا الحجر. ولكن ليس قبل أن يرسل فروبشر فى رحلة ثالثة. وفى هذه المرة دخل ماعرف بعد ذلك بمضيق هدسون الذى كان من الممكن أن يقوده إلى خليج هدسون، ولكن فروبشر اعتقد إنه وقع فى خطأ على الرغم من إنه كان على أعتاب ماكان يمكن أن يكون أعظم وأهم اكتشاف له. وبعد وفاة فروبشر بأكثر من مائة عام، أرسلت أكثر من مائة بعثة لايجاد طريق نحو الشمال الغربى، وكان هؤلاء المقامرون يبحثون عن هذا الطريق، ويصطادون الحوت (وفيل البحر والفقمة). وبعد رحلة فروبشر بعشر سنوات، قام جون دافيس John Davis وهو انجليزى آخر بثلاث رحلات كشفية لتفتيش المياه بين جرين لاند فى الشرق، وسلسلة القطب الشمالى فى الغرب. وهى القناة الكبيرة المسماة بمضيق ديفيس وقد رأى أيضا المدخل المؤدى الى مضيق هدسون، الذى يوصل بالتالى الى خليج هدسون، وقدمت التيار العنيف ديفيس من التقدم فى تلك المنطقة، لأن الماء كان يتقلب بسرعة، ويحدث خريرا مرتفعا مثلما يحدثه المد والجزر. لهذا لم يقامر ديفيس بالتوغل فى الداخل.

وبعد خمس عشرة سنة من وفاة ديفيس دخل رجل إنجليزى ثالث يدعى جورج ويموث George Waymouth الى مضيق هدسون، وكان قد أبحر أكثر من نص الطريق عبر قناة تتجه نحو خليج هدسون، ويبلغ طولها ٤٥٠ ميلا، ولكن هذا الا المغامر لم يحقق هدفه بسبب خوف رفاقه من الجليد، لذا عاد الجميع ولم يكون الا فى هذا البحار المحملة بالجليد عبثا كما جاء ولكن المعلومات التى حصلت عليها ،

البعثة والخرائط التي رسمتها عن هذه المناطق. قادت الى واحد من أعظم وأهم الاستكشافات في تاريخ أمريكا، وهي المغامرة التي قام بها هنري هيدسون في الخليج الكبير، وهو بحر داخلي، تبلغ مساحته ضعف مساحة تكساس وسمى هذا الخليج باسم هيدسون، وقضى هنري هيدسون كل سنواته كمكتشف محاولا إيجاد أقصر طريق يؤدي الى الصين، واقتنع بأن الإنسان في إمكانه الوصول الى الشرق من أوروبا عن طريق الإبحار على طول الحافة الشمالية لليابسة، اما إلى الشرق أو الغرب، وقد بدأ البحث عن الطريق الشمالي الشرقي الواقع على طول ساحل روسيا وسيبيريا، ولكنه فشل مرتين، وكانت المرة الثانية عندما عضده على العودة بجارته بزعامه زميل له يدعى روبرت جويت Robert Juet.

وأما عن محاولته الثالثة، فقد تخلى عن المساعدة التي يقدمها له الإنجليزي كي يقوم برحلته لحساب شركة الهند الشرقية الهولندية، ولقد شرع في القيام برحلته من هولندا عام ١٦٠٩م، في سفينته الصغيرة التي سميت نصف القمر Half Moon كان برفقته طاقم مكون من عشرين رجلا، وانطلق هيدسون الى الشمال الشرقي أكثر من مرة، وعندما وجد نفسه أمام عائق من أرض نوافازمبلا Nova zembla في شمال روسيا المغطاة بالجليد، بدأ رجاله مرة أخرى في التذمر، لهذا تخلى عن محاولته الخاصة بإيجاد طريق يمر من حول هذه المنطقة، وعندئذ، غير طريقه، وعبر الأطلنطي كي يبحث عن طريق يؤدي الى جزر الهند بحيث يمر من خلال أمريكا. وأبحرت السفينة (نصف القمر) على طول ساحل خليج تشيسابيك، وبعد ذلك عادت إلى الشمال، وفي ١١ من شهر سبتمبر عام ١٦٠٩م، دخلت السفينة الخليج العلوي وهو ما يعرف الآن بميناء نيويورك. وكانت أول سفينة أوروبية معروفة زارت هذا الميناء هي السفينة التي قادها فيرازانو. قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما. وتقدم هيدسون إلى النهر الكبير، فأبحر مع التيار مسافة ١٥٠ ميلا، وبعد ذلك، استمر في الإبحار في قارب لعدة أميال قليلة. وقد سحره الخريف بما فيه من أوراق أشجار حمراء ذهبية، كما سحره أيضا الجو الصافي والوادي الجميل، والنهر الواسع والسلسلة الصخرية المديبة المعروفة باسم كاتسكيلز Catskills، ولكن كان كلما توغل. كلما وضحت الحقيقة، بأنه لم يستطع إيجاد

طريق يوصل إلى المحيط الهادى حتى ذلك الوقت.

وعلى طول النهر، وجد الهنود شعبا محبوبا، الامر الذى لا يمكن أن يقال عن رجاله الذين قتلوا عددا منهم (أى من الهنود) على طول الطريق وعندما شعر الهنود بأن هدسون ورجاله كانوا يخشون أقواسهم وسهامهم حطموها وألقوا بها فى النار، وبعد ذلك أحضروا جلود كلب الماء وكتب البحر الى السفينة نصف القمر، كى يستبدلوا بالخرز والسكاكين والفئوس، وعندما وصلت هذه الأخبار الخاصة بالإتجار فى الفراء إلى هولندا، اندفعت السفن الهولندية على أثر ذلك إلى هذا المكان، وظهرت إلى الوجود وعلى وجه السرعة مستعمرة إسترداد الجديدة. وفى ذلك الوقت ، طلبت الحكومة البريطانية أن يباشر هدسون أى عمليات كشفية من أجلها وليس من أجل هولندا، ولهذا فقد انطلق هدسون فى العام التالى من إنجلترا متوجها الى منطقة القطب الشمالى الأمريكى وذلك ليرى ما إذا كان فى الإمكان التوغل فى الداخل أكثر من سابقه من أمثال فروبشر، وديفيس، وريموث وملاحون بريطانيون آخرون.

استخدم هدسون سفينة ويموث فى العمليات الكشفية التى قام بها، كما استخدم خرائط إسلافه، فكان قد أبحر مباشرة إلى مياه المضيق الهانجة، وقد واجه مضايقات من جانب بحارة السفينة ويموث. وكان ضباب الصيف الكثيف قد خيم على المضيق، فجعله منطقة مربعة، وتميز أيضا بشواطئه المقفرة وبصخوره الخطيرة وبجباله الثلجية العائمة. وفى اليوم الثالث من شهر أغسطس عام ١٦٦٠م، فرح هدسون عندما شاهد المضيق الذى يبلغ عرضه خمسة أميال ويزداد اتساعه حتى يصبح بحرا واسعا يبعد عن مرمى بصره وعلى حسب معرفه هدسون، فإن مياه هذا الخليج المفتوحة قد تمتد إلى الصين، فهذا هو خليج هدسون. وناضل هدسون من أجل الكشف مرات عديدة، فقد قام بالبحث عن طريق يوصل إلى الجنوب عن طريق خليج جيمس ذى المياه الضحلة، ولكن لم يوجد هناك "مضيق" وبعد عدة أسابيع عارض البحارة هذا العمل.

وكان روبرت جيوت المتحدث الرسمى للبحارة المتمردين، وقد مارس جيوت هذا التمرد فى جميع رحلات هدسون الثلاث السابقة، ومع ذلك اتخذ هدسون كرفيق مرة ثانية وقد وقف بجانب جيوت هذا، شاب صغير، كان من ضمن أفراد البعثة، وكان هذا

الشاب يدعى هنرى جرين Henry Green، الذى فضل الشنق فى وطنه على الجوع فى الخارج، وكان همدسون يأمل فى القضاء على هذا التمرد، فقام بعزل جيوت وزميلين آخرين له. وبعد ذلك وأصل همدسون كشفه عبر المجرى من أجل البحث عن قناة، واستمر كذلك حتى بدأ فصل الشتاء، وبعد ذلك رعى بسفينته على الشاطئ، وهناك بدأ فى حفر الخنادق للتحصن فيها طوال هذا الفصل، ويقدم فصل الربيع فى يونيو، رغب همدسون فى مواصلة بحثه عن طريق مائى يتجه إلى الغرب، ولكن العصيان الذى حدث فى صفوف بحارته عرقل خططة الكشفية، وبعد ذلك قاد كل من جيوت وجرين غالبية البحارة، وذلك للقيام بمهمة الكشف، بينما أجبر همدسون، ومعه ستة آخرون على المكوث فى قارب كان مقطورا فى السفينة، ولكن فى نفس هذه اللحظة ثار بحار من السفينة على المتبردين وانضم إلى همدسون فى قاربه، وأخبر المتبردين إنه عرف ان الله سيقف الى جانب الحق "الى جانب همدسون".

وبينما كانت المركب التى تقل همدسون وزملاءه المخلصين تسير ببطء فى وسط سطح مائى واسع وساكن، ظهر شخص فى مؤخرة السفينة "دسكفرى" Discovery وهو يحمل فى يديه فأسا، وفجأة رفع هذا الشخص الفأس وأنزلها بقوة على اللبان (أى على الحبل الذى يجر به القارب)، وبهذا العمل إتفصل القارب عن السفينة بمن فيه من بحارة وتركوا فى الخلف وهم معرضون للموت، وأبحرت السفينة "دسكفرى" بأمان إلى أرض الوطن، بينما قتل هنرى جرين بواسطة الأسكيمو، عندما ذهب الى الشاطئ، وحاول أن يسرق منهم الطعام، كما مات جيوت بسبب الجوع أيضا. وقد ترك همدسون عمدا عند هذه المياه النائية، حتى مات هو كذلك وعرف خبر وفاته فى انجلترا لأن واحدا من الأشخاص التسعة الذين ظلوا على قيد الحياة والذين وصلوا الى انجلترا اخبروا بالقصة بكامل تفاصيلها. فما الذى كان يقع الى الغرب إذن من هذا البحر الداخلى العظيم، الذى رأه؟ وهل كانت المياه المفتوحة تمتد على طول الطريق الى المحيط الهادى؟ والإجابة أنه لم يستطع أحد أن يجيب على ذلك بشئ، وذلك لأن السفينة "دسكفرى" لم تصل فى تجوالها الى الغرب، ولكنه كان بحرا ذا مساحة عظيمة. وقد فرحت انجلترا بهذا التقرير الذى جعلها تبدر مقتنعة بأن السفينة البريطانية كانت قد وجدت الطريق

الشمالي الغربي. وكان ينبغي ان يشنق المتمردين الذين عانوا بعد محاكمتهم بسبب إرتكابهم لهذه الجريمة، ولكن لم يحدث شئ من هذا او ذلك، أى أنهم لم يعاقبوا، لأنهم هم الوحيدون الذين كانوا قد أبحروا فى البحر، وهم الذين كان من المعتقد إنهم سيقومون مرة أخرى بالإبحار إلى جزر الهند، حيث أن معرفتهم كانت على جانب من الأهمية وعلى هذا فمن الخسارة الفادحة قتلهم.

النهر الكبير

فى الستينات من القرن السادس عشر، كان معظم ساحل أمريكا قد اكتشف، وبعد ذلك، كان راسمو الخرائط فى أوربا لا يزالون يعتقدون فى وجود طريق يمكن للسفن أن تبحر فيه عبر هذا العالم الجديد الى جزر الهند. وكان المستكشفون لا يزالون يحاولون البحث عنه. ومن فترة سابقة ، استقر البريطانيون فى جزء كبير من نيوانجلند، فكانوا قد استولوا من الهولنديين على مستعمرة الأراضى المنخفضة الجديدة وأعادوا تسميتها بنىويورك، ومن فرجينيا فى الجنوب توغلو فى الداخل ومع ذلك فلا يزال الجنوب يقع على مسافة نائية. وفى ذلك الوقت، كان يوجد فى هاتين القارتين مناطق شاسعة كثيرة تقع تحت هيمنة أسبانيا الجديدة. عندئذ، أخذ نصيب فرنسا* من أمريكا يتناقص، مع أن تشامبليان كان قد جد فى تحقيقه، وذلك بتأسيس مستعمرة كوبيك، ويرجع ذلك الى عدااء الأوركواز لفرنسا الجديدة، فكان هؤلاء الأوركواز - يتاجرون مع بريطانيا وهولندا - وفى الوقت نفسه، كانوا يقومون بهجماتهم على المستوطنات الفرنسية. وفي النهاية، أى فى عام ١٦٦٥م، قررت فرنسا أن يكون لها موطن قدم فى أمريكا يستحق أن تحارب من أجله، وأرسلت جيشا إلى كوبيك على درجة كبيرة من القوة بحيث يكون فى إمكانه القضاء على دولة الأوركواز. وفى خلال شهور قليلة أجبر أعداء فرنسا على الإستسلام وطلب السلام.

وهكذا، وبعد إزاحة العدو ، انتشر المغامرون ، والتجار، ورجال البعثات التبشيرية على نطاق واسع فى الجزء الشمالى الأوسط من القطر، وإقاموا مراكز أمامية عند النقطة الرئيسية، وادعوا ملكية الأرض. وكان هدفهم الأسمى هو تشييد امبراطورية

* فى يناير من عام ١٦٨٠م، وقف لاسال أثناء كشفه فى الداخل عند قرية هنود اللينوى الأصدقاء. وأعلم الهنود جماعة لاسال، وكل ما ضايقهم هو أنهم كانوا يحملون فى أرجلهم الشحم. وقد حصل لاسال من الهنود على بعض البلط والتوباكو، وبعد فترة قصيرة، بنى حصن كريفاكير القريب من الهنود والواقع على نهر اللينوى (المؤلف)

قوية في أمريكا. يكون في إمكانها الهيمنة على طرق التجارة الرئيسية إذا استطاعوا إيجادها، والبحث الجاد في الجانب الآخر من القارة عن طريق مائي يوصل إلى المحيط الهادئ. وكان لويس جوليت Lewis Jolliet رجلاً فرنسي الجنسية، وكندي المولد وواحداً من أعظم المرشدين الجسورين للطرق. وعمل هذا المرشد تاجراً لعدة سنوات مع الهنود، فعرف كيف يحدد طريقه خلال الغابات الشمالية الكثيفة، وعرف كيف يقود قاربه في المياه الهائجة. وفي عام ١٦٦٩م، إنطلق جوليت من كويك للبحث عن منابع النحاس التي اعتقد إنها توجد على شاطئ بحيرة سوبريور. وقد وصل في بحثه إلى مسافة بعيدة حتى حصن القديسة ماري Sault Saint Mari الواقع في شبه الجزيرة العليا لولاية متشيجان الحالية، حيث تتدفق مياه بحيرة سوبريور إلى بحيرة هيورون Lake Huron.

وهناك قابل جوليت الأب الشاب الجزويتي. وقد اختار ماركت حصن القديسة ماري ليكون موقعاً لبعثته، ويمثل هذا الحصن واحداً من سلسلة المحطات التي أسست على شواطئ بحيرة الوطن بواسطة الكهنة الفرنسيين. وقد علم ماركت من الهنود بوجود نهر كبير ليس على مسافة بعيدة من حصن القديسة ماري الذي أنشئ في الشمال، وتتدفق مياه هذا النهر نحو الجنوب. ويستمر مجراه حتى يصب في البحر. وقد علم جوليت بوجود هذا النهر. وبعد ذلك عاد جوليت إلى كويك في خريف عام ١٦٧٢م، وبدأ مرة ثانية في البحث عن هذا النهر، بقدر طاquته. وفي مايو عام ١٦٧٣م، بدأ جوليت وماركت** وخمسة رجال آخرون بحثهم، وكانوا جميعاً على ظهر مركبين شراعيين. وقد ذهبوا جميعاً إلى خليج جرين، الذي كان يمثل الذراع الضخم لبحيرة متشيجان الواقعة في الشرق، وقد حرص الهنود على المحافظة على تجارتهم مع جوليت، لذلك حاولوا من جانبهم منع الفرنسيين من التوغل أكثر من ذلك، وعلى حد قول الهنود فإن الشياطين قد تلتهم أفراد البعثة وقواربها معاً، ولكن الفرنسيين استمروا في تقدمهم، وقد تمكن ستة من الحطابيين من نوى العضلات القوية، من القيام بمجهود

** في عام ١٦٧٣م، هبط كل من لويس جوليت وبيير ماركت بمراكبهم إلى نهر المسيسيبي. (المؤلف).

تقدمهم، وقد تمكن ستة من الحطابيين من نوى العضلات القوية. من القيام بمجهود عنيف ، كانوا قد بذلوه فى التجديف، وفى حمل أمتعهم، وفى شق طريقهم ضد التيار على طول نهر فوكس، واستمروا فى مسيرهم حتى نهر وسكنسن، وكان برفقتهم القسيس نور الملبس البالية.

وهناك كتب ماركت يقول " غادرنا منطقة المياه التى تتدفق الى كويبك، بعد ان بدأنا التجول من فوقها،، وسوف يؤدى بنا هذا الى أرض غربية، وفى يونية من عام ١٦٧٣م، وبدهشة وسرور بالغين رأى رجال البعثة أمامهم نهر المسيسيبى بالقرب من المدينة الحالية الواقعة فى بريرى دى شين Prairie du chien وبينما كانت المراكب تسير فى مجرى ضخم شعر جوليت بكل تأكيد إنه وجد الطريق المائى الغربى مع أنه كان فى طريقه الى كاليفورنيا والمحيط الهادى. وكان رجال البعثة قد وصلوا الى قطر مجهول. وعلى جانب من الثراء، وكان التيار يساعدهم على المسير، عندما كانوا يجدفون فى المجرى الرئيسى، وقد امتلأوا بهجة بسبب رؤيتهم للوادي الواسع الملى بالغلزان، والأشياء الأخرى الموجودة فى هذا القطر. وفى تلك الأثناء كانت احدى القوارب قد ارتطمت بسمكة كبيرة، وفى هذا الصدد كتب ماركت يقول "فى الغالب قلبت تلك السمكة القارب، وقد رهب الهنود بالفرنسيين بود، بحيث أعطوهم غليوناً كان يستعمله هنود أمريكا كإشارة أو كدلالة على السلام. وفى أوقات كثيرة كان لهم القدرة على تجنب مضايقة القبائل غير الموثوق بها وذلك بالتلويح بهذا الغليون.

وكان جوليت فى حيرة من أمر هذا النهر، ولكن كى يصل الى خليج كاليفورنيا كان ينبغى عليه القيام برحلة طواف طويلة صوب الغرب حيث أن المجرى الرئيسى استمر فى المسير فى اتجاه الغرب، وعندما أقترب من موقع مدينة سنت لورنس الحديثة دهش بسبب رؤيته لمجرى آخر واسعاً متصلاً بنهر المسيسيبى وقد تحقق جوليت من أن نهر ميسورى سيقودهم تجاه الغرب الى كاليفورنيا، وهذا لم يكن يحدث وذلك لأن نهر المسيسيبى لم يتدفق فى الباسيفك، ولكن كان يتدفق فى خليج المكسيك الذى اكتشف آنذاك لذلك قرر جوليت مواصلة الإبحار مع نهر المسيسيبى، وبعد أيام قليلة رأى مصب أهايو، حيث تقع اللينيز كالقاهرة Illionis - Cairo أو كما تقع القاهرة،

وهناك رأى مصعب نهر الأومايوOhio، بعد ذلك تقدم جوليت *جنوباً، ووقف بعد ذلك بعد ذلك عند نقطة التقاء نهر أركانساس بالميسيسيبي، وهناك تقاوض مع الهنود، وقد ذكر ان مدة السفر تستغرق أكثر من عشرة أيام، يصل بعدها الى الخليج، ولكنه مع ذلك قد حذر من الاستمرار في المسير في ذلك الوقت، وذلك لأن القبائل القاطنة في الجنوب كانت قبائل مقاتلة لديها البنادق التي حصلت عليها من الأسبان.

ولم ير جوليت أى سبب في مواصلة رحلته ليعرض نفسه للوقوع في الأسر في أيدي الوطنيين، أو في أيدي الأسبان أنفسهم، لهذا عاد بعد رحلة قاسية بحيث كان عندئذ صاعداً مع النهر، ووصل في النهاية الى كويك في الصيف لتالي، وقبل خمس سنوات من رحلة كل من ماركت وجوليت وجد مغامر آخر، كان قد بدأ رحلته مع نهر المسيسيبي. وكان هذا المغامر الأخير هو روبرت كافيليه دى لاسال Robert Cavelier de la sall وهو تاجر فراء شاب وابن تاجر ثرى من فرنسا، وكان يعيش في سنت لورنس، وهو الذى أصبح فيما بعد أعظم رائد من الرواد الذين ساهموا في كشف أمريكا في عصره، فكان هذا المغامر قد خطط بنفسه لكشف أكبر نهر، وكان قد جاء الى امريكا عام ١٦٦٦م، ليقوم بالإشراف على ضيعة واقعة بالقرب من مونتريال التي كان قد حصل عليها من الملك، وقد ناداه جيرانه باسم ضيعة (لاشين) الصين بسبب إصراره المتكرر بأنه من الممكن ايجاد طريق للسفن يصل بها الى الصين. ورغب لاسال في التوغل في الداخل من فرنسا الجديدة صوب الجنوب والغرب، لكي يتفحص القطر الواقع بين البحيرات، العظمى ومكسيكو، وإذا وجد هناك فراء جيداً فإنه في هذه الحالة سيقوم بتشبيد مراكز تجارية كما إنه في الوقت نفسه سيدعم حق فرنسا الجديدة، في هذا القطاع الضخم من أمريكا، وسوف يحصى هذا الحق بإقامة سلسلة من القلاع. وإذا كان الطريق الى الصين يمر عبر المناطق الداخلية فإن لاسال كان يتمنى أن يكون هو ذلك الرجل الذى يكشف هذا الطريق.

* عاد ماركت وجوليه من عند النقطة التي يلتقي عندها اركانساس بالميسيسيبي، وبعد عشر سنوات، أى في عام ١٦٨٢م نزل لاسال الى النهر، ووقف في هذه المنطقة وشيد حاجزاً، وبعد ذلك واصل السير الى خليج المكسيك. (المؤلف).

وازدادت آمال لاسال، عندما زاره في لاشين بعض الهنود القادمين من الغرب ، وحدثه عن "النهر الكبير" الذي تتدفق مياهه من وسط القارة، ويصب في بحر فيرميليون (خليج كاليفورنيا) الذي يقسم الأرض الى قسمين، وقالوا: لكى يصل لاسال الى النهر كان عليه أن يذهب في قارب الى بحيرة إيري Erie، التى يستغرق السفر إليها مدة ثلاثة أيام، واعتقد لاسال مثل جوليه، بأن النهر من المرجح أن يدير في اتجاه الجنوب والغرب، ومن المحتمل أيضا أن يصب في خليج كاليفورنيا، فإذا كان الأمر كذلك، فإن الطريق في الواقع يمر عبر المياه الى الانديز Indies ومن العجيب جدا أن يبيع لاسال ضيعته في الصين لكى يعمل بعثة كشفية، وفي صيف عام ١٦٦٩م، شرع لاسال في الكشف عن النهر، وكان برفقته مجموعة مكونة من المرشدين الهنود. وقد تجول لاسال في القطر ، ولما فشل في ايجاد نهر المسيسيبي مع إنه كان قد تجول في كل القطر، تحدث الى الهنود، وعلم منهم كل مايمكن معرفته عن الأرض وابعادها. وفي عام ١٦٧٣م، عاد لاسال الى كويك.

وقضى لاسال عدة سنوات تالية، في عمل مايمكن عمله، لزيادة تجارة الفراء وفي هذا الصدد منحه ملك فرنسا حق احتكار كل الأعمال التجارية في وادي المسيسيبي لهذا شيد مراكز تجارية في غرب ولاية نيويورك الواقعة على بحيرة متشيجان وعلى نهر اللينوى، وهناك بنى السفن كى تساهم في نقل الفراء على وجه السرعة من خلال المياه الداخلية. ومع ذلك لم يتخل أبدا عن أمل تتبع المسيسيبي في يوم حتى يصل إلى البحر. وبعد أن عاد لويس جوليت من كشفه عام ١٦٧٤م، كان قد عرف حتى نقطة التقائه مع الأركانساس. وفي ذلك الوقت ، عرف لاسال * أن المسيسيبي لم يكن طريقا الى الصين، لأنه عندما سافر على طول النهر مع التيار وصل الى خليج مكسيكو، واستطاع ان يطالب فرنسا بهذا النهر (نهر المسيسيبي) وواديه الضخم الذى يمر متدفقا من خلاله، وبذلك استطاع لاسال أن يؤسس امبراطورية فرنسية في قلب أمريكا.

* نزلت جماعة لاسال نهر المسيسيبي، وقررت أن يسمى هذا النهر بنهر كولبرت Colbert، نسبة الى رئيس الوزراء الفرنسى الذى كان يشغل وظيفته في عصر الملك الفرنسى لويس الرابع عشر. (المؤلف).

وفى يناير من عام ١٦٨٠م، أسس لاسال مركزا تجاريا على نهر اللينوى الواقع بالقرب من الطرف الجنوبى لبحيرة ميتشجان، وكان من الممكن ان يطلق على هذا المركز التجارى حصن الحزن واليأس، وذلك لما صادفه هناك من إثباط لهمته.

وبمجرد أن انتهى (بناء الحصن) بدأ لاسال فى بناء سفينة، حمولتها ٤٠ طنا حتى يتمكن من القيام برحلة مع نهر اللينوى، ثم يواصل المسير حتى الخليج، ولكن مع ذلك لم يكتمل بناء السفينة، لأنه لم تكن توجد هناك تجهيزات وإمدادات أكبر. ولهذا السبب رغب فى الإعلان عن عملياته التجارية الأخرى. وبعد ذلك قرر لاسال العودة الى الحصن الذى كان قد أسسه فى نياجرا، والواقع فى غرب ولاية نيويورك، وبلغت مسافة، هذه الرحلة آلاف الأميال. وفى هذا الوقت كانت لاتزال الأنهار والبحيرات متجمدة، لذا لم يستطع لاسال القيام بأى رحلة بواسطة القارب، فضلا عن أن الطريق البرى الذى سيستخدمه كان صعباً أيضاً لأنه كان مغطى بطبقة سميكة من الجليد الزلق. وبعد هذه الرحلة، وهى بكل تأكيد تعد من أصعب الرحلات التى قام بها فى البرارى والقفار الأمريكية، وكان على لاسال أن يعود مرتين آخرين إلى مركزه فى اللينوى، كى يواجه حوادث فجائية قد ظهرت فى مراكزه التجارية بسبب إندلاع جديد لأعمال حربية هندية. وفى تلك الأثناء، وبعد مرور سنتين، هاجم الأوركان الذين كانوا فى حرب مع أصدقاء لاسال من اللينويس حصن كريفيكر، وأحرقوا السفينة التى لم ينته بناؤها بعد، وبعد ذلك غادروا المستوطنة.

وفى النهاية، أى فى عن ١٦٨٢م، كان لاسال يحاول القيام برحلة بأسطول صغير مكون من عدد من القوارب، وقد ضمت هذه البعثة ٢٣ فرنسيا، ١٨ محاربا هندية، وعشر نسوة من الهنديات، وثلاثة أطفال، وبعد ذلك بدأت البعثة مهمتها من بحيرة متشيجان، ومرت من خلال مناطق الثلج والجليد. وفى هذه المناطق قام الرجال بجر قواربهم وأمتعتهم بعد أن وضعوها على ظهر المركب حتى وصلوا الى نهر اللينوى، وعند أطلال حصن كرافيكير، أنزلوا قواربهم الى النهر، وكان الجليد يعوق نقطة التقاء نهر المسيسيبى بنهر اللينوى. لذلك كان على الأسطول الصغير الإنتظار مدة أسبوعين حيث ينوب هذا الجليد . وفى مرة من المرات كاد الأسطول يغرق بسبب قوة التيار

الشديدة، وبسبب عدم مقدرة المجدفين على مواجهته.

وعندما اقترب الفرنسيون من خليج مكسيكو تناقص الطعام، لأنهم لم يستطيعوا صيد الحيوانات من مستنقعات دلتا النهر، ولكن الهنود احضروا لهم اللحم الذي وجده الفرنسيون جيداً، ولذا، وبعد ذلك علم رجال البعثة ان هذا اللحم لحم آدمى. وفي أثناء تقدمهم كتب احد الكهنة يقول "لقد اكتشفنا بحراً مفتوحاً فى التاسع من شهر أبريل عام ١٦٨٢م، وبكل تواضع ممكن أنجزنا مهمتنا، وبعد أن أنشدنا الترانيم إستولى المستر لاسال* على النهر باسم السيد صاحب الجلالة. كما إستولى على جميع الأنهار التى تتصل به، وكذلك على القطر الذى يروى بمياه هذه الأنهار. وبعد ذلك ، عاد لاسال الى فرنسا، يحده الأمل فى توطيد حق فرنسا فى كل منطقة وادى الميسيسبى، وبحث عن رجال وأموال للمستعمرة التى سيقسها فى المقاطعة التى كان قد منحها من قبل، وقد وافق ملك فرنسا لويس الرابع عشر على خطته الرامية الى تأسيس مستوطنة فى المنطقة الواقعة بين فلوريدا ومكسيكو، وعلى مسافة مئات الأميال القليلة من مصب نهر الميسيسبى.

وبعد ذلك بستتين، عاد لاسال الى أمريكا، وبرفته ٤٠٠ مستعمر وجندى. وفى عام ١٦٨٤م، قرر لاسال الإبحار الى خليج مكسيكو بحيث يدخل الى وادى الميسيسبى من النهاية الجنوبية. وتجنب مصب النهر، بحيث رسا بعيداً جهة الغرب أى من خليج متاجوردا Matagorda، الواقع فى تكساس. وهناك شيد لاسال حصن القديس لويس ، كما أسس أيضاً مستعمرته التى منيت بالفشل. وفى يناير من عام ١٦٨٧م قتلت المجاعة والمرض الجميع باستثناء واحد وأربعين من رجال لاسال. وأصبح موقفهم سيئاً، ومع ذلك قرر لاسال وستة عشرة آخرون الوصول الى وطن اللينوى، الواقع على مسافة بعيدة، وذلك بغرض المساعدة ، وفى طريقهم الى جهة الشمال عبروا تكساس وفى تلك الأثناء، اصطادت البعثة جماموسة. وفى نفس الوقت،

* فى التاسع من شهر أبريل عام ١٦٨٢م، وصل لاسال الى مصب نهر الميسيسبى وهناك أعلن ملكية هذا النهر للملك البوربونى لويس الرابع عشر ملك فرنسا وسمى لاسال المقاطعة الفرنسية باسم لويزيانا، وذلك تشريفاً لملكة البلاد الفرنسية (المؤلف).

الذى كان فيه لاسال يقوم بمناقشة رجاله بهدف تزويد البعثة بالإمدادات الغذائية ،
أطلق عليه أحد رجاله النيران من مكنم فأزاده قتيلا، وهكذا وبسبب صراع أحمق
انتهت حياة المستكشف الكبير فى يوم التاسع عشر من شهر مارس عام ١٦٨٧م.

الركن الأخير

عندما عاد مارتن فروبشر من رحلته الى انجلترا عبر المحيط الأطلنطي، ادعى ان والده هو الذي اكتشف الممر الذي يقع في أقصى شمال أمريكا، الذي كان في الحقيقة يمثل المدخل الطويل المعروف في وقتنا الحاضر بخليج فروبشر، وحتى ذلك التاريخ لم يكن أحد يعرفه. وقد أثارت قصة لاسال مستمعا جادا وشجاعا وقرصانا بحريا جسورا، الا وهو فرنسيس دريك Francis Drake، الذي رسم خطة جريئة تتمثل في الإبحار الى الباسفيك، والإغارة على السفن الأسبانية التي تحمل من بيرو كنوز الذهب والفضة، زد على ذلك إنه لو كان ما اكتشفه فروبشر مضيقا حقا فإنه يكون من الممكن بالنسبة لدريك، الدخول اليه من المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي. وإذا نجح دريك في الإغارة على السفن الأسبانية التي تسير في المحيط، والتي تحمل ثروات ثينة، فإنه من الواجب عليه في هذه الحالة ان يتخذ طريقه الى الوطن عبر مضيق فروبشر. ففي أواخر عام ١٥٧٧م أبحر دريك من إنجلترا فوصل الى الباسفيك مارا عبر مضيق ماجلان. وهناك قام بنهب السفن الأسبانية في موانئ كل من أمريكا وكالوا، وهاجم أيضا السفينة التي تحمل الكنز، والتي كانت على مسافة بعيدة من شاطئ بيرو. وقد قدرت هذه الشحنة التي نهبت بما قيمته ٥ ملايين دولار من العملة في الوقت الحاضر.

واستمر دريك في المسير صوب الشمال طبقا للخطة، وكان قد بدأ البحث عن الطريق المائي الذي يوصل الى المحيط الأطلسي. وقبل ذلك بعدة سنوات كان البحارة الأسبان قد اكتشفوا الساحل الغربي وربما اكتشفوا أيضا أوريجون، ولكن لم يمنع هذا دريك من الذهاب الى شاطئ كاليفورنيا، ومعلنا ان هذه الأرض تخص الملكة اليزابيث وسماها نوفا البيون Nova Albion (نيوانجلند) وهناك غرس عمودا في الأرض، ووضع عليه لوحة نحاسية نقش عليها اسم الملكة. وكان دريك قد رسا في هذه المنطقة يوم ١٧ من شهر يونيو عام ١٥٧٩م، وكان هدف بريطانيا في ذلك الوقت، يتمثل في إمتلاك كل هذه المنطقة التي اكتشفها دريك. وقد ثبت نصف شلن من الفضة على

اللوحة، وذلك ليضيف صورة الملكة وهى فى زيها الرسمى. وبعد أن انجز دريك هذا العمل، استأنف كشفه عن المضيق، ولكن بعد أن اكتشف غالبية الساحل حتى مصب نهر كولومبيا تولى عن مهمته، مع إنه كان يتحسس طريقه من خلال طبقات الضباب السمكة والرديئة الرؤية، بل وذات الرائحة الكريهة. ولكى يعود من نفس الطريق فإن هذا يعنى المخاطرة، بل ويعرضه للأسر من جانب السفن الحربية الأسبانية، فبدلاً من ذلك ، بدأ طريقه صوب الغرب عبر المحيط الهادى. وفى عام ١٥٨٠م وصل الى بليموث بانجلترا، ويعد دريك بهذا العمل الرجل الثانى فى التاريخ الذى طاف حول العالم.

وخلت المنطقة التى يلتقى فيها الشرق بالغرب - والتى تفصل سيبيريا الشرقية عن ألاسكا الغربية، والتى تبلغ المسافة بين شاطئها ٥٦ ميلاً - مجهولة بالنسبة للأوروبيين مدة ١٥٠ عاماً. ومع ذلك ، فقد كان بطرس الأكبر- أكبر قياصرة روسيا تخطيطاً للمشاريع - يتوق شوقاً لتوسيع إمبراطوريته داخل الحدود الشرقية لسيبيريا، كما كان كذلك يرغب فى معرفة ما إذا كانت الأطراف الشرقية لسواحل آسيا تتصل بالطرف الغربى لأمريكا الشمالية أم لا، ولكى ينجز بطرس الأكبر هذا العمل خطط لإرسال سفينة من شبه جزيرة كامشاتكا Kamchatke، الشاسعة والواقعة فى سيبيريا، وكانت كامشاتكا* هذه عبارة عن نتق فى المحيط الهادى، يبلغ طوله ٥٠٠٠ ميل ابتداء من سنت بطرسبرج. ويمتد معظم هذا الطريق عبر قناة غير مطروقة. وبعبدة عن المراكز الأمامية الشرقية لتجار الفراء السيبيريين، وكان الوصول الى هناك من روسيا يتطلب قوة أو مهارة خارقة. وإذا وضعنا جانباً أى حديث عن نقل المعدات والمواد اللازمة لبناء السفن، فإن الوصول من روسيا الى هذه المناطق يتطلب مجهوداً يفوق طاقة البشر.

وكان بطرس قد مات قبل أن تبدأ البعثة مهمتها، ولكن أرملته الإمبراطورة كاترين، قد قررت أن تقوم هى بتنفيذ خطته، وفى عام ١٧٢٤م ألقى هذا الواجب

* تميزت شبه جزيرة كامشاتكا ببناء بيرنج لسنت جبريل، وكان قد أبحر من خلال مضائق إنيان Anian، التى سمعت فيها بعد بمضيق بيرنج (المؤلف).

الضخم على عاتق فيتوس بيرنج Vitus Bering وهو ضابط دانماركى بحرى كان قد ساعد بطرس القيصر فى بناء الأسطول الروسى. وبعد أكثر من ثلاث سنوات فى العمل الشاق والجهد المتواصل نجح بيرنج فى الوصول الى شاطئ كامشاتك وهناك شيد سفينة للإبحار بلغ طولها ٦٠ قدما. وأسماءها سنت جبريل Saint Gabriel وفى صيف عام ١٧٢٨م، بدأ بيرنج الإبحار ، فصار مدة شهر فى إتجاه الشمال. متتبعا الساحل الآسيوى الرئيسى بكل دقة. وقد أنجز الكثير من الرحلة فى الضباب. وفى ١٤ من شهر أغسطس انحرف مع الشاطئ إنحرافا فجائيا نحو الغرب، تاركا أمامه بحراً مفتوحا. ومع ذلك ، وأصل طريقه لمدة يومين آخرين فى إتجاه الشمال، ولكن لم يجد أثرا لليابسة. ربما أن بيرنج قد أبحر الى خط عرض ٦٧° ١٨° فإنه بذلك يكون قد عبر فى الواقع دائرة القطب الشمالى. ومر من خلال مضيق يقع بين ألاسكا وسيبيريا، أطلق عليه فيما بعد اسم (مضيق بيرنج)، وبعد ذلك وصل الى بحر الشمال، فهل كان الطقس مشرق فى هذا الوقت؟ فالأجابة عن ذلك تقول: لا، فهو لم يستطع رؤية كل من الشواطئ الشرقية والغربية، فقد كانت الاسكا عن يمينه وسيبيريا عن يساره، وباقتراب نهاية فصل الصيف القصير، لم ير بيرنج شيئا، وهو فى سفينته الصغيرة، التى لم تشيد لتقاوم عواصف شتاء المنطقة القطبية، لهذا قفل بيرنج عائدا، واعتقد إنه قد ذهب فيما وراء المنطقة الشمالية القطبية التى تمتد من شاطئ سيبريا، ولذلك ظن أن آسيا وأمريكا غير متصلتين، وكان ظنه صحيحا. وذلك لأن الضباب كان قد منعه من فحص اكتشافه. لهذا ظل كشفه مشكوكا فيه. وفى ربيع من عام ١٧٣٠م وصل بيرنج عائدا الى سنت بطرسبرج بعد غياب دام خمس سنوات، ولم يصدق جغرافيو الحكومة الروسية، أن المكتشف قد أبحر عبر المياه التى تفصل آسيا عن أمريكا، وقد أغضبته شك الجغرافيين فى إنجازاته، لذلك تجده فى عام ١٧٣٣م، يحصل على تصريح يخول له القيام على رأس بعثة كشفية مرة ثانية الى كامشاتك كى يكتشف المناطق البعيدة. وفى هذا الوقت بنى بيرنج أكثر من سفينتين، وأبحر عبر شمال الباسفيك حتى وصل الى ساحل ألاسكا - بسبب التعب والمرض والعطش وكبر السن حيث بلغ من العمر ٦٠ عاما - وهناك أمر رجاله بالعودة على ظهر سفينته الى أرض الوطن. ومن المرجح

أن يكون السبب راجعا الى مرض الأسقربوط المخيف الذى بدأ ينتشر فيما بينهم . وعندئذ ، بدأت سفينته (سنت بطرس) المسير وسط العواصف الشديدة ، وقد اندفعت السفينة - فى أثناء العودة - الى تجويف فى جزيرة تقع على مسافة ١٠٠ ميل من كامشاتك، وباختصار ، بعد أن نزل طاقمها من على ظهرها، وذهب الى الشاطئ ، وحطمتها عاصفة عنيفة الى قطع صغيرة . وبعد أسابيع قليلة ، أى فى ديسمبر عام ١٧٤١م، مات بيرنج فى مأوى بسيط يوجد فيما نعرفه فى الوقت الحاضر بجزيرة بيرنج.

ولا يزال الكثيرون يرفضون الشكوك فى كشف بيرنج، تلك الشكوك التى استمرت حتى عام ١٧٧٨م وبخاصة أن الضابط الإنجليزى الكابتن كوك كان قد مر من خلال مضيق بيرنج، وطاف من حول الرأس الشرقى. وقد أبحر فى إتجاه الغرب على طول الساحل السيبيريى الشمالى . وفى ذلك الوقت . كان الركن البعيد من أرض أمريكا الشاسعة قد طاف حوله البحارة بسفنهم ، وقد تمكن راسمو الخرائط من رسمه كله. وأخيرا اتضح فى أذهان الناس صورة معالم الأرض. بأبعادها الأساسية. وكذلك المعلومات التى تطورت من بدء العثور على جزيرة صغيرة فى بحر الظلمات فى صباح يوم ١٢ من شهر أكتوبر عام ١٤٩٢م، وقد استغرق رسم هذه المعالم ٣٠٠ عام، وقد فشل المغامرون - من أمثال كولبس، وكابوت ودريك، وبيرنج وغيرهم من الذين فحصوا الشاطئ جزءا جزءا - فى العثور على بقيتهم، ولكن قد تحقق من فشل كل منهم نجاح أكبر مما كان يحلم به أى منهم، وتحقق أيضا شئ أفضل مما كانوا يبحثون عنه، وقد ساعد فى إضافة ما أنجزه كل منهم فى حياته إلى ما أنجزه الآخرون فى حل أعظم لغز على الأرض وهو لغز أمريكا. وبعد أن خابت آمالهم حققوا نجاحا أكبر، فكان الواحد منهم يحلم بتحقيق شئ كبير، يمكن أن يقوم هو بتحقيقه، وكان هناك أشياء كثيرة، أفضل من الأشياء التى يبحثون عنها ، فكل واحد من هؤلاء الرجال ساهم فى على الأرض، ألا وهو لغز أمريكا، هذا فضلا عن القيام بأعمالهم الخاصة فى الحياة العامة.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع	مسلسل
٦ - ٣	تقديم المترجم	١
٨ - ٧	مقدمة لورنس روث	٢
١٣ - ٩	اللغز	٣
٢٥ - ١٤	بحر الظلمات	٤
٣٤ - ٢٦	العالم الجديد	٥
٣٩ - ٣٥	العبور عبر حائط الأرض	٦
٤٨ - ٤٠	البحر الواسع الآمن	٧
٥٢ - ٤٩	جزر فلوريدا	٨
٦١ - ٥٣	فتح المكسيك وبيرو	٩
٦٦ - ٦٢	بحر فيرانانو الشرقى	١٠
٧٠ - ٦٧	عبور الأرض لأول مرة	١١
٧٦ - ٧١	مدن الذهب السبع	١٢
٨٢ - ٧٧	الطريق إلى جزر الهند	١٣
٨٧ - ٨٣	ماس كنذا	١٤
٩٣ - ٨٨	فرنسا تشامبليان الجديدة	١٥
٩٩ - ٩٤	الطريق الشمالى الغربى	١٦
١٠٧ - ١٠٠	النهر الكبير	١٧
١١١ - ١٠٨	الركن الأخير	١٨

